رحيل السينين
د. سمير حنا صادق
 كتاب الأهلية

 رقم 55 / يناير 1996م
رئيس الحزب: خالد محيي الدين
رئيس مجلس الإدارة: طفي واد

مجلس التحرير: د. إبراهيم سعد الدين/ أ. س. يوسف/ حسين عبد الرزاق/ د. عبد العزيز أيوب/ عبد الفتاح شكر/ د. محمد أحمد خلف الله الإداري والتحرير: 324 إشارة عبد الخالق طه/ طبيبة القاهرة

تسلم جميع المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات: يتم إرسالها للمجلة

الأعداد السابقة: ترسية محدودة من الأعداد السابقة من السلسلة ترسل

العديد من كتاب القاهرة أو خارج مصر العربية بالبريد المسجل

وينتمي كتاب مصر إلى أسرة أن الجهة إدارة (دولار) أمريكية ويزيد

جنيه مصري داخل مصر على المكتبة نفقات البريد كما يضاف (دولار)

واحد خارجها إلى الثمن وتحول أسم الكتاب بحوالة بريدية باسم الأعلى.

كتاب الأهالي سلسلة كتب شهيرة تصدرها جريدة الأهالي-
حزب التجمع الوطني التقدمي الوحيد- مصر.

أما في صمت من القيادات الأمية عن النقاط، وحول البريد تيار تناغم إلى حقبة الرعى والانتماء فقد
كان لإبدأ أن يصدر كتاب الأهالي ليكون بعض جهدنا الشماع في المعركة التي تدور على حيزة
المعرق ليساهم في إعادة بنا، الجسور المتضررة بين الطبيعة والشعب وبين المواطنين وبين الوطن والأمة.
وينوى جمهورنا، والكتاب الذي نتمناه فيه

ولكن تعيش في عصر ثورة الاتصالات، القلم يؤدي تدفق معلوماته إلى نشره في البيئة، فإن
حاجتنا إلى المعرفة التي ينشرها بالbecueات إعادة أحياء النشاط الوطني لإنقاذ عن حاجتنا إلى التعمق
الذي يحيي الأيدي لا الذين يشوه عليه.

وإذا كان منطق الجرائد السياسية البرية يجعل الصورة والرسالة فإن جهر دور السار على
الصعيد الرئيسي والانتماء هو السر، فإن ذلك أن الأمر هنا أمر تكوين، وتأسيس يتزايد ضروب
الحاضر، وبرمجة في أفكار المستقبل وأحلامه.
كتاب الأهالي
ثقافة الهدم والبناء

رئيس التحرير: أمينة شفيق

*القراءة الواردة في كتاب السلسلة تُعتبر بالضرورة من رأي التجمع*

يقبل كتاب الأهالي نشر جميع الكتب المؤلفة والمترجمة التي يرغب أصحابها في نشرها مادام تخدم الهدف من إصداره. يقبل التبرعات والهبات التي يقدمها المهتمون بنشر الثقافة واللغات في تحمل جزء من نفقات إصداره. بهدف تخفيف سعره للفصلاء، ويشير إلى ذلك إذا طلب صاحب القارئ.
كتاب الأهالي

رحيل السنين

مراجعة: عبد الله السبع
مكتتب التدوير: عادل بكر

بوحدة أجهزة الماكينتوش بمؤسسة الأهالي/23 شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة /ت: 2304-292260
إهداء
إلى البعيدين عن العين
القريبين إلى القلب
إلى ابنتي الحبيبة سها وزوجها العزيز رضا
أهدي هذا الكتاب
سمير حنا صادق
د. سمير حنا صادق

ريحق السنين
مقدمة وشكر

لم يعد هناك ما يمكن أن تعطيه سوى كلمة أمينة وفكرة مخلصة.
هذه مجموعة من مقالات نشرت لي في الصحف والمجلات المصرية في الفترة بين نوفمبر 1995 وسبتمبر 1996 ولا يربط بينها إلا خيط واحد هو شعورى الشخصي بصدقها.
نصادف كاتب المقال في مصر عقبات كأداء في إصال كلماته سليمة إلى القارئ. وأشد هذه العقبات صعوبة هو رئيس التحرير الذي يفترض أن يوقره ورؤيته هي مقاييس الجمال والحقيقة.
ولولا حب واحترام بعض رؤساء التحرير لمهنتهم لما رأت هذه الكلمات النور. أتقدم بوافر شكري وتقديرى إلى الأصدقاء الأستاذ حسین عبدالرازيق والدكتور غالي شكري والأستاذ سامي خشبة لتشجيعهم لي على نشر هذه المقالات.
أتقدم كذلك بوافر شكري واحترامى إلى الدكتور رفعت السيد الذي تبنى نشر هذا الكتاب.

سيمیر حنا صادق

январь 1996
أوراق العمر - بشرطة

عندما ينتهي العمر، وتتحول الدعوات لك من "ربنا يسدد خطاك ويزيد في مقدارك" إلى دعوات أكثر تواضا "ربنا يعطيك الصحة.. وطول عمرك".

و عندما تلاحظ أن تلامذتك وأولادك يتحدثون إليك بصوت مرتفع لأنهم يفترضون فيك شيئاً من الصم.

و عندما يمر الوقت ويشعر الإنسان بتأثير تأكيل لمعلومات الذاكرة في المخ.

و عندما تسبب رأسك وتحس بتأثير تصلب الشرايين على ما في داخلها.

و عندما تحس بقرب التحلل النهائي لهذا الجهاز الجميل الذي نرى ونحس ونسمع منه والذي يكون الد "أنا".

عند هذا الوقت نشعر جميعاً برغبة في "تفريغ" ما في هذا الجهاز من ذكريات نقصها على أولادنا وأحفادنا .. أو أن نسجل ما فيه على الورق.

ولكن، سامحك الله بالويس يا عوض، حرقته بكتابك الرائع أحلامنا جميعاً. وجرمنا من حق تحقيق رفيتنا في البقاء .. فماذا نستطيع أن نفعل بعد أن فعلت سوى أن تلقيك؟ وأي عنوان ممكن أن نختاره لما نسجله سوى "أوراق العمر"؟ ومثلما كان يوجد ترمي ٣٠ وترمي ٣٠ بشرطة - فإني أحجز لنفسي قبل غيري عنوان "أوراق العمر - بشرطة".

***
تمثل فترة السجن في حياة من جربها من المثقفين قيمة التجربة البشرية.
وكلما قابلت صديقا من قضايا سنوات عديدة من العمر في السجون مثل الدكتور فايز أو المهندس فوزي جيشي. تعجبت لعزوفهم عن الحديث عن هذه الفترة في حياتهم، ولقد سجنت كأغلب جيلى ولكن لمدة تقل عن شهرين.
وأيام وساعات بل ودقائق; هذه الفترة لاتزال محفورة بوضوح في ذاكرتي حتى الآن.

***
كنا أربعة قضعنا عام 1948 أثناء مؤامرة مضحكة لعمل انشقاق في إحدى المنظمات السياسية: وليم رزق الله - طالب بلهائي طب وحاليا أخصائي أمراض نساء، عبد المنعم الغزالي - حاليا خارج القطر، حسين الغمري - طالب هنديا وبعد ذلك د. حسين الغمري أحد أهم المشتغلين بإدارة الصحف وتوفي إلى رحمة الله منذ أعوام قليلة، وسمير حنا صادق - طالب بهائي طب.
ينقسم سجن «قره ميدان» إلى ثلاثة عناب كبيره (أ، ب، ج) وتعبر "تأديب" وكان عنبر ج هو المخصص لمرضى السل والدوستارية، إلى جانب المشاغبين.

بعد الاستقبال المعتاد (الضرب وكفاح) وجدنا أنفسنا مع سجين سياسي آخر في زنزانة مساحتها حوالي 12 أمتار، في جانب منها شباك مرفوع جدا وفي الجانب الآخر باب أسود به فتحة للنظر تفتح وتعلق من الخارج، والزنزانة جردنان واحد للشرب والثاني لما ليس كذلك ولكل منا برش وربطانية.
في اليوم الأول استيقظت على أذان الفجر - وكان في تلك الأيام هادئا وجميلًا، ثم سمعت من الخارج الإشارة الموسيقية لنشرة الأخبار (مارس
عائدة)، ثم أصوات السعال التي أعرفها جيدا، السعال الذي يدل على وجود تآكل في الرئة .. واكتشفنا أننا في عنبر ج.

***

كما تناشد في السجن الحرية تنديم المساواة، فالمساجين درجات:

كتم المسمار الأزرق الكالح القصير تحول إلى واكث الاكرام جميلة اللون والمتازة، السعال تحول إلى ينطرون أنقى الصندل جديد يملع بشدة. في جليب جاكته الواسعة دائما على كرائز الشهيرة في ذلك الوقت: عليلة معدنية حمراء كبيرة تسع خمسين سيجارة يحيي بيا من يضرض عنها. واكتشفت أن الملك شديد الثراء، وأنه قبض عليه في قضية احتيال، وأنه شقيق أحد كبار ضباط الجيش في هذا الوقت. وكان هذا الضابط جارا لنا في شبرا وصديقا لعائلتنا. وبدأ أصبحت من المتقربين من الملك وكان أهم ما حصلت عليه من ثمرات هذا "القرب" هو حق استعمال تليفون مأمور السجن في محادثة والدتي يوميا.

يأتي بعد "الملك" مجموعة من السجناء المبدعين - مجموعة أنور السادات، وحسين توفيق وعبيد توفيق (قضية مقتل أمين عثمان) وكان هؤلاء السجناء يعاملون معاملة خاصة جدا لأسباب خاصة جدا لامكان استشثرة هنا: كانوا ينامون على سرير في غرف منفردة بإضاءة بتحكرون فيها وفق رغبتهم وكانوا يخرجون كثيرا بحجج مختلفة، ويزرون أهاليهم بل ويهبنون إلى السينما، وفي إحدى هذه الزيارات دخل حسين توفيق دورة المياه في منزل عائلته وخرج من باب آخر إلى الخارج هرب بمساعدة إحسان عبد القدوس. 

١٣
وغيره. ولم يقبض على حسين توفيق بعد ذلك إلا عام 65 في قضية أخرى.
وكانت هناك فترة متوسطة المعاملة: سعد زغلول، فؤاد الصحفي (حاليا في الخارج) وشاب ألماني يدعى كورت ميتز وغيرهما وكانوا متهمين فيما أطلق عليه اسم قضية قتيلة 6 مايو أو سنينا مترو.
وكان هناك "الأراذل" أو "الجرب" (على رأس المفسور له)... وقد قضينا
أغلب الوقت بين عناصر التأديب.
كان المرحوم حسين القمرى كتلة من الذكاء وكان دائمًا من أوائل دفعته في الهندسة. وعندما فصل من كلية بدأ الدراسة من جديد في كلية التجارة حيث حصل على البكالوريوس والماجستير والدكتوراه في زمن قصير.
وكان إلى جانب ذكائه شديد الحساسية خجولا لأقسى درجة. واكتشفنا من اليوم الأول أن حسين لا يستطيع التبول أمام أحد فكان يقوم في منتصف الليل سعيدا بما سوف يحقق من راحة منتظرة وكنا نحن بشقاقية نحرص على أن نحرمه من هذه السعادة البسيطة فمجرد وصوله إلى الجردل ينبهه أحدنا إلى أنه مستيقظ ويراه. فيضطر مرغما إلى تأجيل لحظة السعادة المرتقبة.
تختلف أيام الأسبوع في السجن عنها في خارج السجن... ففي قره ميدان
كانت أيام الأسبوع كالآتي: السبت الأول، أبو عيسى، الثلاثاء الأربعاء... إلخ.
وكان أبو عيسى أكبر مورد لحوم لسجون ومدارس المملكة ولذا كان يطلق اسمه على اليوم الذي يذوق فيه المساجين راحة اللحم، وقد ربي أبو عيسى أولادا وأحفادا ممتازين وأحد أبنائه زميل عزيز أخصائي أمراض نساء وإحدى حفيداته عازفة مشهورة.
وكان ما يصل المساجين من أبو عيسى هو قطع من العظام بغطاء رقيق من
الشفت أما اللحم فكان يأكله ضباط وعساكر السجن والعاملون بالمطاعم الذين كان يمكن تمييزهم في الحال عن باقي المساجين بما يتمتعون به من سمنة وصحة وكان أكمل المساجين العادئ هو القول المدنس الأسود سبيَ الصف والرائحة والطعم، وللوقاية من مرض الاستيرUTF864عف كان يليق للمساجين حزمة من الحشائش في الزنانيات كل يوم.

***

ترافق عنا في هذه القضية المرحوم الدكتور عزيز فهمي وكان محامياً نابهاً مشهوراً متخصصاً في القضايا السياسية وابن أحد كبار وزراء الوفد (عبد السلام فهمي باشا) ثم انضم إليه طوعاً بدون أتعاب محاميان آخرين: الأول محام من أثري عائلات الصعيد: الأستاذ موريس فخري عبد النور والثاني الأستاذ مصطفى عبد الله وكان شابًا له نشاط سياسي في ذلك الوقت. وكانت مرفوعة الجمع ممتازة وحكم بالبراءة ابتدائية وفي الاستئناف.

ودارت الأيام وتوفي الدكتور عزيز في حادث. وفي أحد الأيام وبعد أن أصبت أستاذًا بالطب اتصل بي أحد كبار أساتذة الطب (المرحوم الدكتور خليهم دوس) طالباً مني حسن استقبال مرير مسرح لي واستقبال المريض فإذا به المرحوم الأستاذ موريس فخري عبد النور. وكدت أقبل بديه ففضله على وذكره بنفسه وبعد شهر قليلة توفى إلى رحمة اللهم. ومنذ أسابيع قليلة وبعد هجرة لفرنسا والعمل في اليونيسكو أكثر من عشرين عاماً، عاد الأستاذ ظريف عبد الله مع رفيقته حباه إلى مصر ليستقر بها وأسعدني الحظ أيضًا أن أكون في خدمتهما مهنيًا.

***

١٥
ينفتح باب عنبر السجن صباح كل يوم ليدخل شاويش ينادي على المساجين بتكاليف معينة فمنهم من لقاء النبابة ومنهم من سيرته للمستشفى ومنهم من سيتلقى لسجن آخر ومنهم الخبير المنتظر من الجميع.

«إفراج».

وفي يوم من الأيام بعد إضراب عن الطعام وبعد قضية وبعد عمق متعدد.

اجاء اليوم المنتظر.

سمير حنا ...

حسين الفمري ...

عبد المنعم الغزالي ...

ويلم رزق الله ...

... 

إفراج

وعدد جولة لابد منها على الأقسام وجدت نفسها في شوارع القاهرة. ذهب إلى دكان سجاير به تليفون واتصلت بال منزل: آلو... كمال (أخي) أنا خرجت من السجن... صاحت السيدة صاحبة الدكان: باللهوى! ورفضت أخذ ثمن المكالمه وقالت لي روح ياباني رينا يتوب عليك من البطال...

نوفمبر سنة 199
النظام البيئي

تعيش الحيوانات والطحالب والنباتات والبكتيريا في نظم حية تسمى Ecosystems كل منهم على الآخر. وتعرف هذه النظم باسم أنظمة بيئية.

ويؤدي الإضرار بأي من أفراد هذه النظم إلى سقوط النظام بأكمله.

وفي أديبنا علم البيئة أنشأ عديد من سقوط مثل هذه النظم ومن أطرفها وأوضحها قصة التهور الشيلى.

منذ بضعة عقود كانت التهور الشيلى تمثل أهم مصدر للسماد في مصر وفي كثير من بلدان العالم. وكانت تمثل المصدر الأساسي للنترودين الإضافي للتربة. كانت التهورات تجمع من بعض الجزر الصخرية المجاورة لشاطئ أمريكا اللاتينية بجوار شيلي - وكانت مصدرًا مهماً لإيرادات هذه الدولة من العملات الأجنبية. وكانت هذه التهورات هي «فضلات» ملايين من الطيور البحرية التي تعيش على هذه الجزر - أي أن هذه التهورات كانت مسألة لما يطلق عليه عندنا هنا اسم «زيل الحمام».

ثم اكتشف بعض الصيادين أن المياه حول هذه الجزر غنية بسمك الأشرجة» ذى الرائحة المميزة للشبهة، والذي يضاف إلى كثير من الأسماك للمؤكولات لتحسين نكهتها. ونشبت للتو حركة قوية لصيد هذه الأسماك بكميات ضخمة وتصديرها كمصدر للعملة الأجنبية.

كان هذا السمك يمثل الغذاء الرئيسي لهذه الطيور ولذا فقد أدى صيده إلى اختفاءها وبالتالي إلى اختفاء النترات من صخور الجزر.
ولم تقف الخسارة عند هذا الحد: فقبل اختفاء الطيور كانت فضلات تسقط في مياه المحيط، وبدنا تشير محتوياتها من الترويجات اللازم لنمو الطحالب التي تتغذى عليها أسماك الأنشوة.

وباختفاء الطيور قل الترويجات فاختفت الطحالب واختفت بالتالي سمك الأنشوة. وهكذا اختفت الطيور وخانت النثرات واختفت الأنشوة من سواحل شيلاء.

للفارس العزيز الدكتور ميلاد حنا قصة وروياها أحيانا لمحترفا السياسي، فإن كانت قد تسببت له في الكثير من المتاعب. يُقتться الدكتور ميلاد إنه زار إحدى القرى في السودان ووجد بها خربة لا يسكنها أحد، فسأل عن السبب، فقيل له "أليس صدنا النمور". وكانت القصة كالتالي: كان يعيش في القرية سكانها، وكان حولها قبيلة من القرود وقيل من النمور، يعيش الجميع في توازن معقول: يسرق القرود بعض الأكل من القرية، يأكل النمور بعض القرود، يصطاد الأهالي بعض القرود وبعض النمور لجلدها، إلى أن جاء يوم هاجم فيه نمر طفلاً من القرية فقامت القرية وقعت كل النمور. لما قتلت النمور تضاعف عدد القرود إلى درجة كبيرة ولم يعد من الممكن العيش معها، فهجروا أهلها. ولما هجرها أهلها فقدت القرود أحد مصادر أكلها الذي كانت تسركه من أهل القرية فهاجرت في الأخرى.

وهكذا خريت القرية.

***

في بيان أذيع من بعض المحافظات الساحلية، صرح المحافظ بالسماح بصيد "غراب البحر" لأنه يأكل الأسماك ويهدد الثروة السمكية. نرجو أن تدرس المحافظة تأثير هذا القرار على الأنظمة البيئية.

سبتمبر 1992
الإنسان والاتصال

إذا افترضنا أن آخر ما يظهر من الأحياء هو أرقتها فإن أرقتى عضوي في Homo Primates وأرقتى منه الإنسان العاقل ERECTUS.

وقد انتشر النوع الأول على سطح الكوكب في أفريقيا والصين وأوروبا منذ حوالي مليوني عام ثم اختفى تماما منذ مائتي ألف عام. أما النوع الثاني فقد ظهر في أفريقيا منذ مائتي ألف عام وفي أوروبا من أربعين ألف عام.

وينتشر الإنسان العاقل أساسا عن الإنسان الواقف في شكل الجمجمة، فحجم المخ في النوع الأول أكبر من النوع الثاني خصوصا في المناطق الجانبية Parietal حيث توجد مراكز حركات البدن الدقيقة والكلام.

وقد اكتشف في قرية ألمانية تدعى نياندلثال جمجمة Neanderthal تمثل مرحلة بين جمجمة الإنسان الواقف و الإنسان العاقل ووجدت نماذج شبيهة بهذه الجمجمة في أنحاء أخرى من العالم ولكن الرأي السائد بين علماء الأنسابولوجي هو أن الإنسان نياندلثال كما اتفق على تسميته - قد ظهر بشكل وفقي وفترة صغيرة في مرحلة من مراحل الانتقال بين الإنسان الواقف و الإنسان العاقل.

ووجدت في إحدى مناطق أواسط أفريقيا مجموعة من الآلات الحجرية قدر
الإنسان Baboon الواقع، يوجد بجوارها عظام لأفراد ضخمة من نوع البابون واتضح من هذه العظام أن تلك الآلات الحجرية قد استعملت في قتل وجزر وتقطيع هذه الحيوانات وإعدادها للأكل. كما اتضح أيضا أن هذه الآلات الحجرية قد استُخرجت من محاجر تبعد حوالي أربعين كيلو مترا عن مكان وجودها.

وقد استنتج هذه الاكتشافات استنتاجات خطيرة: أولها أنه لما كان من المستحيل على فرد واحد من «الإنسان الواقع» صيد حيوان في مثل قوة وشراسة البابون فإنه لا بد أن هذا الإنسان كان صيادا جماعيا. وثانيها أنه بما أن هذه الحجارة وجدت على بعد كبير من مصادرها فلا بد أن هذا الإنسان كان يمارس الهجارة المنظمة لمناطق الصيد.

للهجرة المنظمة والصيد الجماعي متطلبات لا بد من توافرها: فلا بد مثلًا أن يتعرف كل فرد من أفراد القبيلة على الأفراد الآخرين. وتتعرف الكلاب والذئاب والضباب على بعضها البعض بما يتملكه من حاسة حادة للشم. ولكن الإنسان وافقا كان أو عاقلا لا يتمتع بمثل هذه الحدة. وقد استبدل الإنسان هذه الحاسة بحاسة النظر المحسس الدقيق وعلامات الوجه المميزة، فوجه كل إنسان يختلف اختلافا تاما عن الآخر، وبهذه الوسيلة يمكن لكل فرد من أفراد القبيلة أن يميز الأفراد الآخرين.

Communication ويتطلب الصيد الجماعي نوعا من «الاتصال» بين أفراد القطع الواحد. وقد حل الإنسان هذه المشكلة بتعبيرات الوجه.
في ووجه الإنسان عشات من العضلات التي يمكن أن تعبير عن السعادة والغضب، والفرح، والحزن، والفرح، والغضب، والمرارة. وأغلب هذه التعبيرات محدودة وراثيا وتتقلل بين الأجيال من خلال الجينات وقلة منها مكاسبية تتعلمها الفرد من بقية أفراد القبيلة.

ولقد ساعد وقوف الإنسان على قدميه على توفير وسيلة أخرى للاتصال، فقد تحررت اليدان وأمكن استعمالهما في "الإشارة" والتعبير عن المعاني المختلفة. ويقول علماء "الإنسانولوجي" إن التعبير باليديين وتنمية القدرة "broca's" على الحركات الدقيقة قد أدى إلى النهاية إلى نمو منطقة "بروكا" في المخ وهي المنطقة التي تحكم في الكلام والتي تثبت أنها كبرت 

Area وبرزت بشكل واضح في جمجم "الإنسان العاقل" وهكذا انتقل التعبير والاتصال وتقل الخبرات إلى مرحلة جديدة، هي مرحلة الكلام التي تطورت إلى استخدام الرسوم والرموز ثم إلى الكتابة.

وهكذا انتقلت الحياة إلى مرحلة جديدة مع التطور، فقد تحرر "الإنسان العاقل" من قيود التطور البيولوجي بجزئيات الدن. أ. إلى نوع جديد من التطور بانتقال الخبرات والمعرفة من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل وانتقل هذا النوع من التطور السريع بالبشرية خلال عشة آلاف عام فقط من مرحلة الإنسان الصيد الجماعي الجامع للأثمار إلى "Hunter Gatherer" مرحلة الإنسان الصياد الجماعي الجامع للأثمار العالمgalis إلى الكمبيوتر يدير مصنعًا يعمل بالرموز لصناعة السيارات.

ومن العبث أن يحاول البعض العودة بالبشرية إلى الوراء.

أكتوبر 1997
دعاية علمية
كوكب يفقد توازنه
لندن 21 فبراير سنة 1993

لكنها من أحياء لندن نكهة الخاصة: جولدرز جرين حي اليهود، سوهو حي الرذيلة، هامستيد هيث يقطاعه يسار حزب العمال من المفكرين الماركسيين، نايتبريدج موطن «هارودز» درة الإمبراطورية البريطانية التي سقطت في أيدي أبناء مصير الامبراطورية محاسب سلطان بروني، أما ساوث كنزنجزتون فهي مليئة بالطلبة من أبناء أوروبا وأثرياء عالم الجنوب.

يتمتع أثرياء هذا الحي ميزات عديدة: فهو مجاور لحديقة هايدبارك، وهو غنى بالمتاحف وقاعات الموسيقى، فيه قاعة ألبرت التي يقام بها سنويا حفلات «البريمياد» حيث يعزف أهم تراث العالم من الموسيقى لمستمعين يفترشون أرض القاعة، فيه أيضا ثلاثة متاحف ضخمة متجاورة: متحف العلم، ومتحف التاريخ الطبيعي، ومتحف الجيولوجيا.

ويهمتنا هذا متحف العلوم...

ففي هذا المتحف توجد نماذج لكل ما تملكه البشرية من علم وتكنولوجيا: تطور آلات الاحتراق الداخلي، كيف تعمل آلات العرض السينمائي، مكونات آلات التلفزيون والفيديو .. إلخ.
البندول
من قبة عالية وكبيرة في سقف المتحف يتدلى بندول ضخم يصل إلى ما يقرب من أسفل الكورنيشي، هذا هو بندول فوكو، يُشير إلى أن القوة مازالت قائمة.

"J.B. Fovcault" 1868-1919 العالم الفيزيائي الفرنسي الذي اكتشف أيضاً الجيروسكوب، جهاز مراقبة الفضاء.

يُستعار بندول فوكو بدلالة، ويسجل بحركته الوقورة سلامة دوران الأرض حول محورها.

في يوم مشهود (31 فبراير 199得分) ظهر انحراف في حركة البندول يتكرر مرة كل 24 ساعة... وقامت الدنيا ولم تقعد... بعد دراسات سريعة ثبت أن هذه الظاهرة ناتجة عن انحراف في محور دوران الأرض يتكرر كل 24 ساعة.

ولم يكن هذا الانحراف ليشغله العلماء كثيراً لولا أنه ثبت بنماذج رياضية على الكمبيوتر أنه يتسبب في فقدان كوكب الأرض لمساره في الدوران حول الشمس، مما يؤدي إلى تغلب جاذبية الشمس على هذا التسارع وتغيير المدار البيضاوي معاد حوار الشمس إلى دورات أشد من الحرارة التي أصبحت قريبة.

الإعلان الإنجليزى

هكذا تحدثت صحف الإثارة الإنجليزية التي تعلم فيها قادة الإعلام في مصر:

"الدليلى ميل: "كوكب الأرض يرقص على موسيقى الباب"."

22
الدبلوماسي: تحت صورة لفتاة شبه عارية تهز وسطها «العالم كله بيوجه وسطه».

الدبلوماسي: بعد أخبار آخر سباق لكلاب تحدثت عن الحدث بسياسته باللون الأحمر بعبارة يمكن ترجمتها بلغتنا الجميلة إلى «هذا يهاجم».

أما الصحافة الرسمية فكان تعليقها كالآتي:

التايمز: نشرت الخبر في صفحة العلم وفي مربع صغير.

الأخرى الأسبوعية: نشرت تحليلًا علميًا طويلًا شرحت فيه نظرية بندول فوكو والبهسبوسيك وبهدت فيه عن احتمالات أسباب ما حدث وعن طرق العلاج الممكنة.

* القاهرة 4 مارس 1996

لم يتأخر الإعلام المصري في أداء واجبه نحو الشعب في الحديث عن الظاهرة.

فقد أدى التلفزيون بيانًا لوزير الإعلام قال فيه «إن مصر تعيش أروع أيام الديمقراطية وأنه لا يوجد أي قيود على الكلمة الحرة» وأكد على أن تنظيم التلفزيون الفضائي سوف تستمر في خدمة المواطن المصري أينما كان.

وأدع التلفزيون في آخر نشرة له يوم 6 مارس أن أساتذة جامعيًا مشهورًا قد عقد مؤتمرا صحفياً قال فيه إنه يمكن من اكتشاف علاج لهذه الظاهرة وأنه رفض عروض الشركات الأجنبية التي تبهثت على شراء حق استعماله، وتحدثت الجرائد اليومية والأسبوعية بعد ذلك عن ذلك الأستاذ الذي وصفته بأنه عالمي وأنه محروم لجائزة نوبل.

ونشرت صحيفة معارضة في عددها الأسبوعي مقالًا قالت فيه، *** أربعون سنة ونحن نرزح تحت حكم الاستعباد والاستبداد.

24
** وقد استولى اللصوص على قصور وأملاك الأصحاب الحقيقيين للبلاد.

** إن سويسرا بلغت ما بلغته بالمبادرات الفردية.

** وإن أمريكا وصلت إلى ما وصلت إليه بنفس الطريقة.

** ولكن هؤلاء اللصوص الذين أغرقونا في مجانية التعليم والعلاج مازالوا يعيشون في الأرض قاسدا.

نشر رئيس مجلس إدارة صحيفة قومية مقالا يقول فيه إنه معروف عنه عزووه عن التملق «ولكنه لا يستطيع أن يكتم رأيه ويحجب إعطاء كل ذي حق حقه» وقال: «أثبتت الحقائق العلمية بعد نظر السيد رئيس الجمهورية نصبه، كما أوضحت الأحداث ضحالة فكر زعامة المعارضة من عملاء الشيوعية الحمراء المحلية الدولة الذين أعتمتهم التقود والقصور والفرودكا عن إدراك حقائق العصر».

** وأصدرت إحدى النقابات المهنية بيانًا مختصرا قالت فيه: "الإسلام هو الحل".

* جنيف 10 يونيو 1994 *

السبب

تكرست الدراسات في مراكز الهيئات الدولية للأرصاد الجوية والبيئة، واتضح من هذه الدراسات أن السبب في انحراف محور الأرض هو ازدياد الثقافة في منطقة الولايات المتحدة الأمريكية، وهو مرفوض يشتبه ما يحدث أحيانًا لبعض السيارات عندما يفقد اتزانه مما يستدعي العلاج بوضع العجلة في جهاز خاص وضبط الاتزان بتركيب أثقال من الرصاص على أماكن من...
الجنت» ومن الصعب طبعا تركيب رصاص لكوكب الأرض، ودعوك حتى من وضعه على جهاز ضبط الاتزان.

التفصيل

وفسرت هذه الظاهرة بسباب عديدة:

1- فقد ازداد في أمريكا عدد السيارات الضخمة المنتجة محليا والمستوردة من أوروبا واليابان ازدادًا كبيرًا. وعلاوة على وزنها، فهذى السيارات تنتج غازات ذات كثافة نزوية مرتفعة، وعلى ذلك فقد أصبح الغلاف الجوي فوق هذه المنطقة أثقل من مثيله في المنطقة المواجهة.

2- واتضح أيضا أن "ناطحات السحاب" بارتفاعها الشديد تؤدي إلى إطالة "ذراع الرافعة" مما يؤدي إلى ازدياد تأثير الوزن.

3- وأذيع سر خطر: فقد اتضح أن الولايات المتحدة قد اتفقت مع بعض الحكومات الواقعيين تحت نفوذها لشراء كل ما تحتويه دولهم من نفط وحقوقه في الآبار الخالية للولايات المتحدة لكي تحتكر السوق في المستقبل مقابل ذهبا. وقد كان من الممكن - والذهب معدن ثقيل جدا - لو أن هذا الذهب سحب من الولايات المتحدة ووضع في خزائن البلاد المصدرة للنفط لأحدث شيئا من التوازن. ولكن اتضح أن هذا الذهب قد أردع في خزائن في الأدوار العليا من "ناطحات السحاب" (راجع الفقرة 2).

4- وقيمت أيضا بعض الأشياء التي لا يميل كاتب هذه السطور لتصديقها منها مثل أن الكثافة النزوية للدم عند الأمريكيين أكبر من مثيلتها في أفراد باقي أنحاء العالم.

الحلول

وردست حلول عدة:

29
منها تصدير الحديد الخردة والنفايات الثقيلة إلى منطقة في المحيط في شمال غربي استراليا لإحداث تعادل في الوزن. وقد رفضت استراليا وهيئة البيئة هذا الحل.

ومنها تصدير هذه المواد إلى صحراوات منطقة الشرق الأوسط. ورغم قبول بعض الحكام وعدم تصدي هيئة البيئة فقد اتضح أن هذه المنطقة لا تواجه الولايات المتحدة ولا تعيد الاتزان المطلوب.

* لندن - 1997

تدريجيا. ولأسباب غير معروفة - عاد بندول فوكر لمجرة الأصل واختفت الهزة.

ذكرت أسباب عديدة لهذا - منها العناية الإلهية - ومنها فقدان الولايات المتحدة لوزنها ومنها ازدياد الوزن في مناطق أخرى من العالم (الصين واليابان).

وعلى كل حال - فقد أسدل الستار عن فترة سوداء وخطرة في تاريخ الكوكب.

أكتوبر سنة 1992
المهمة الغائبة
عن مؤسساتنا الثقافية

قال المحاور ‏«هل صحيح أن أكل السمك مع اللبن ضار بالصحة؟»
رد المتحدث (طبيب بجليباد) ‏«السمك يعيش في الماء، والماء بارد،
واللبن بارد». سأل المحاور (وقد بدأت تظهر على وجهه علامات التفهم) وهل أكلهما
معًا ضار؟ قال المتحدث (بنتهى التفتة فيما يقول) ‏«إن أكل البادر مع البادر ضار
ويؤدي إلى الإسهال». النص الحركي من أحد البرامج الثقافية في تلفزيون جمهورية مصر
العربية في أواخر القرن العشرين.

لتم رفعت كلمة ‏«الثقافة» من لائحة الوزارة، ومن لائحة المجلس الأعلى،
ومن البرامج الثقافية في التلفزيون، ومن القصور، ووضعنا بلاً منها كلمتي
‏«الفن والأدب» فأصبحت ‏«وزارة الفن والأدب» و ‏«قصر الفن والأدب»
و ‏«برامج الفن والأدب» هل كان سيتبع هذا التغيير في المناوين أي تغيير في
مجالات نشاط هذه المؤسسات والبرامج؟

فما هي الثقافة؟

28
تعرف الثقافة في المعاجم بأنها "مجمع المعطيات لشخص أو لشعب ما في مكان محدد وزمن محدد فيما يتعلق بالاقتصاديات والصناعة والزراعة وأسلوب المعيشة والموسيقى والفنون والآداب والمعتقدات الدينية والتقاليد واللغة .. إلخ.

وأحد المستلزمات الأساسية لأية دولة، هو وجود حد أدنى من الثقافة المشتركة التي تعابز الزمان والتي تساعد على حل مشاكل الحاضر والتي تؤهل للدخول إلى المستقبل، والتي تحث للمواطنين أن يعيشوا في توافق وانسجام مع بعضهم ومع بعضهم البعض.

فإذا كنا نهدف إلى الدخول إلى القرن الواحد والعشرين ونحن نوفر جدا معقولا من السعادة والرخاء والصحة لمواطنينا، فهل يتوازى فيما نزعم أنه "ثقافة" هذه المؤهلات؟

إن الروافد الثقافية ليست فقط ما يشرئ الوحدان كالدين والفن والأدب والموسيقى، بل لا بد أيضا من توافر ما يرشد العقل من معلومات عن طبيعة الكون الذي نعيش فيه وعن السياسة والاقتصاد، مما يؤدي في النهاية إلى تكوين ثقافة تقاس أساسا لمنهج التفكير يصبح بدوره أسسا للحوار الثقافي الموضوعي للتحكم على الأشياء، بدلا من الحوار بالتنصل والتصويب الذي ساد في عصور ما قبل العلم، والذي يؤدي في النهاية إلى الفوضى والعنف.

فإذا كان لنا أن نوجه ثقافتنا لتعاسب عالم اليوم وتعدننا لعالم الغد، فإننا لا بد أن نتذكر أن عالم اليوم هو عالم العلم.

فبنظرية سريعة إلى العالم سنرى أن هناك علاقة طردية واضحة بين الرفاهية والسعادة وصحة الأطفال وحيوية الشباب من جانب وبين احترام العلم والمنهج العلمي والاهتمام بروافد العلم في الثقافة القومية من جانب آخر. فيازداد
العلم في أى بلد تزداد السعادة، وبانحدار العلم ينحدر الرخاء والصحة والفاعلية.

وواضح أن لدينا نقصاً شديداً أو حتى غياباً كاملاً لهذا الرافد المهم للثقافة في عالمنا المعاصر.

ومن هو المثقف؟

إذا كنا لا نعترف للجراح أو عالم الطبيعة أنه إنسان مثقف ما لم يكن قد قرأ نجيب محفوظ ودوستويفسكي، وسمع جمال عبد الرحيم وشوستاكوفيتش، ورأى لوحتين جاذبية سرى ومانيس، فإنه علينا في هذا العصر، وفقاً للتعريف السابق، أن نعتبر الكاتب المسرحي أو الشاعر مثقفاً ما لم يكن يعرف شيئاً عن النظريات العلمية الحديثة التي شكلت ثقافة العالم الحديث مثل نظرية التطور ونظرية الكم ونظرية النسبية والهندسة الوراثية والسيبرنتاقيفة ونظرية المعلومات.

الثقافة:

وقد واجهت إنجلترا في أواخر الخمسينيات موقفاً يرتبط بما نحن فيه الآن وإن أختلف عنه: فإذا كانت المشكلة لدينا هي غياب رافد العلم عن ثقافتنا غياباً تاماً، فإن المشكلة كانت هناك هي الشعور بوجود ثقافتين.

وقد دفع هذا الوضع أحد أهم العلماء والكتاب الإنجليز لورد سنو، C.P. Snow إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات وكتابة العديد من المقالات في المساندات الجديدة الأسبوعية اللندنية المتميزه بعنوان «الثقافة». ولعلنا لو لخصنا ما قاله اللورد سنو فإنه صنف بعض الضرور على مشكلتنا.

قال سنو إن كان بحكم الدراسة والعمل باختصار في علوم الطبيعة، وإنه كانً
بحكم الهواية أدبياً. وقال إنه بعد فترة من عمله في كامبريدج لاحظ أنه كان يقضي نهاره بين العلماء ويقضي ليله بين الأدباء، وأنه كان يتنسب إحساس بأنه يتقل بين مجموعتين مختلفتين من الناس، صحيح أنهم من أصل واحد وطبيعة واحدة وضعج اجتماعي مشابه إلا أنه يفصل بينهم بحر كبير من التواصل الفكري والنفسية، بل إن غياب التفاهم بين المجموعتين يصل أحياناً إلى درجة الكراهية المتبادلة.

وتتميز المجموعة الأدبية في رأي سترون، بميل أعضائها للليمين السياسي، وأن أفرادها يميلون إلى التشائم الاجتماعي الذي يصل بعض قسمهم إلى Yates الانضمام لصفوف الفاشيين (مثل إيزاك باوند) وبتس Pound وويلام Lewis هام لويس ووصل بالبعض إلى درجة العدمية واليأس (مثل جورج Orwell). وكان سنو، أثناء الحرب العالمية الثانية، يرأس مجموعة من العلماء يُكونون لجنة استشارية علمية تعاون تشترل في إدارة شؤون الحرب. وقد أُتيحت له الفرصة خلال هذه المهمة أن يعاين ويحاور عشاق الألف من العلماء. ويقول سنو عن هؤلاء العلماء إنهم كانوا يتساوتون بشيء من التفاوت الاجتماعي والاستبشار بالمستقبل، مما دفع بجانب كبير منهم إلى الابتكار في الحرب الأهلية الأسبانية ضد فرانكو، وان أغلبهم يميل إلى اليسار السياسي، وأن أغلبهم لا يقرأ الأدب، وأنهم وإن كانوا أقل تزاما فيما يتعلق بالدين، إلا أنهم بشكل عام أكثر تمسكا بالأخلاق من زملائهم الأدباء، كما لاحظ سنو أن هذه المجموعة (العلماء) تترك علاقاتهم بالفنون على الموسيقى الجادة ونادراً بالفنون التشيكية. ويقول سنو متعجباً إن المبدعين من الأدباء Intellectuals قد انفردوا في غفلة من الزمان بلقب المثقفين.
وانتهى سنو إلى أن انفصال الثقافتين خسارة فادحة للبلد وأنه لا بد من
دمجهما معاً في ثقافة واحدة لمصلحة الجميع.

هذا خلاصة ما قاله لورد سنو في محاضراته الرائعة، فما علاقته بنا؟
إن النظرية الشاملة للمثقفين في بلادنا يتضح منها في الغياب المطلق
لمجموعة العلماء. فقد هجر الجانب الأكبر من علمائنا العلم والثقافة العلمية،
واتجهت القلة منهم إلى الثقافة الأدبية، والباقي إلى اندماج الثقافة.

فما هو الوضع عندنا الآن؟
نحن نرى إذن بدأوا حضاري خطير لا خروج منه إلى المستقبل إلا بحق
ثقافتنا بأسرع ما يمكن وبكل الطرق بجرعات كبيرة من الثقافة العلمية حتى
تصبح جديرين أن نعيش الحاضر والمستقبل.

والطريق لتحقيق هذا الغرض ينبغي أساساً من ثلاثة مصادر:
أولاً: التعليم

فالتعليم عندنا في مصر يقوم به في الغالب مدرس مطعون جاهل، يعتمد
على "الحفظ" وهي كلمة تعبر تعبيراً دقيقاً بمعناها الحقيقي على التخلف،
ونحن نذكروها بل ونطالب أحياناً بالعودة إلى الكتبية لنؤكدها. ولقد كان
لحفظ وظيفة هي "حفظ" التراث قبل اختراع الكتابة والمطبعة والكمبيوتر
ولكننا مازلنا حتى الآن نطلب من الطفل ونشجعه ونكافئه عليه.

و بينما يشجع الطفل الياباني على استعمال فكره يبهر عليه الكومبيوتر،
ويتمه الهندسة الوراثية، فيبقى عنقه وتفكره، بينما يدرب أطفال العالم
المتحضر على الفكر وال الحوار والجدل فتستمع مداركهم ويتعلمون احترام العلم
والرأي الآخر، تدرب مدارسنا أطفالنا على الجهيل والجمعاء بما لا يفهمون.

وتعذبهم لخروج من المدرسة إلى العالم وهم يدردون كالببغاءات نصوصاً
حفظوها لا نفع منها ولا فائدة. وهكنا يتكون احتياجًا ضخم من أنصاف المستمعين الذين تدبروا على ازدراء العلم والمنهج العلمي والمشرحين لعمليات الإرهاب والعنف والفوخى والذين يتحولون إلى وقود للإجرام والمخدرات.

لابد أذن من ثورة في التعليم تلقى بأبنائنا إلى التفكير بالمنهج العلمي وإلى تفهم طبيعة الكون والعصر الذي نعيشه.

ثانيا: الإعلام

أما عن إعلامنا فحدث ولا خرج: لقد اختصرت صحافتنا القومية ما تقدمه من مادة علمية إلى ما يشبه الإعلانات عن أمجاد كاذبة وانتصارات خيالية عن أول دواء لمرض... و أكبر عملية لإزالة... إلخ. وهي في حقيقتها إعلانات ممفوعة الأجور -نقدا أو عينا. ويكفي أن أكبر الصحافة المصرية كانت إلى عهد قريب، تنشر باب العلم في ربع صغير يحوار "صدق أو لا تصدق" و"بختك اليوم".

فإذا انتقلنا إلى التلفزيون فإن المصيبة أفدح. فعلاً على ما يشبه التلفزيون من جهل ودجل فإن ما يعرضه من برامج علمية -وهو أقل من القليل- هو في حقيقة الأمر فشات من برامج علمية بعرضها التلفزيون البريطاني أو الأمريكي يعلق عليها في نسخها الأصلية علماء خبراء في العلم وفي التربية، يهدرون في تعلقهم الذكية شبابهم إلى احترام وحب العلم ويشرون فيهم الفصول العلمي البناء والتسلسل الذكي. ولكن تلفزيوننا لا يدرك حتى لهذه الفشات ما كان عليه من تعليم وإنما يشرك ذلك لغير المختصين من المعلقين والمعلقات الذين يصبون 아이س الباء على حماس الشباب وحبيهم للعلم والمنهج العلمي بتعليقاتهم السطحية الساذجة.
ثم يحاول التليفزيونان أن يستبذل الحديث عن العلم والمنهج العلمي
بالحديث عن التكنولوجيا نسبيا أو متناوبا أن شجرة العلم الواقعة جذورها في
العلوم الأساسية كالطبيعة والرياضة والأحياء وعصير حياتها هو المنهج
العلمي، ثمارها هي العلوم الإنسانية. وهكذا فإن التكنولوجيا هي ثمرة من
ثمار عديدة للعلم لابد قبل استيعابها من وجود جذور قوية توفر الغذاء الكافي
لنمو الثمار المختلفة.
ثالثا: الثقافة
ولابد طبعا للهيئات الثقافية المتنوعة أن ت ينبغي الرائد العلمي للثقافة
بإعداد المجلات المناسبة، ومحاربة الجهل والدجل بل يجب عليها أن تقوم
فيما تدعو من وجدانيات تدفع الشباب إلى حب العلم واحترام المنهج العلمي
وكراهية الخرافات والزعمات.
هذا تتفز ثقافتنا القومية قفزة كبيرة إلى الأمام، وبهذا تقوم مؤسساتنا
المتنوعة بمواجهة نحو إمداد شبابنا بثقافة علمية تؤهله لمواجهة الحاضر
والمستقبل.

نوفمبر 1992
الزلزال والإسكان

..وثيقة اتهام..

وغمض المضار الواضح لبرز 큰 القيادة السياسية عن التغيير، فبالدِّير السياسة فائقة مهمة: فقد بقيت بعض القيادة في مراكزها نتيجة هذه السياسة، لمدة طويلة، تصل أحيانا إلى ما يقرب من خمسة عشر عاما، وأصبح من الممكن لنا الآن محاسبتها على أدائها، دون أن تتمكن من المراوغة وانتقال الأذواق بأخطاء القيادة السابقة، أو تراكمات الماضي، وما إلى ذلك من الحجج الراهنة.

فإذا أضيفنا إلى ذلك أننا ننعم منذ زمن طويل، نكاد أن ننسى ما قبله، بحكومات الحزب الوطنى فإنا نجد أن منطق المحاسبة واضح بل وواجب ولا مفر منه.

ولقد سبق مناقشة مدى التقصير الواضح في سياسة الإعلام الذي لم تتفجر قيادته منذ سنين طويلة والذي وصلنا إلى ما نحن فيه الآن من فحص طائفية وعنف وإرهاب وتخلف وغياب للمشاعر الوطنية والانتماء. مما يشكل خطورة واضحة على أمننا القومي؛ وبالمثل فقد أبقينا الزلزال الأخير إلى ما ارتكبه قيادة الإسكان في حق شعب مصر خلال السنوات الطوال التي تولت فيها مهمتها.

فعنما نعرف أن زلزالاً متوسطا قد تسبب في هذا الدمار الفادح، وعندما
نكتشف بعدة أن 20-80 في المائة من منازل القاهرة غير سليم إنشائها، وعندما نتذكر أن الأسمدة المردة لأصحاب السبانى لن تمتلئ طويلة كأن فاسدا، وعندما نعرف أن أطفالنا كانوا يدرسين في مدارس سرق القانونين الجشع بإنجاحهم بإفساد ذمم المهندسين المشرفين. عندما نتأمل في كل هذا وغيره يصبح التقصير واضحًا للجميع. فإذا لم تكن وظيفة وزارة الإسكان معنى هذا كله فما هي وظيفتها إذن؟

التهمة إذن ثابتة ولا حاجة بنا للدخول في تفصيل لبيان أوجه التقصير في أداء الواجب نحو الشعب ولكن، ومع ذلك هناك بعض أوجه التقصير التي تستحق أن نذكرها بشكل خاص:

أولا- انتهت سياسة الوزارة وتخطيطها وترشيحاتها إلى وضع غريب بملأ القاهرة بعشرات الآلاف من الشقق الخالية وتعمل فيها ميلارات من الجنيهات ترقد على شكل كتال من الطوب والأسمدة والماء والمياه والخشب والألومنيوم. لا تنجز ولا تؤدي خدمته، في وقت تشبعه فيه البلاد من أزمة اقتصادية طاحنة وبطالة ونقص شديد في الاستيراد للاستثمار والخدمات.

ثانيا- انتهت سياسة الوزارة أيضاً إلى وضع خطر آخر: فقد تركت الوزارة إسكان الجانب الأكبر من الطبقة المتوسطة إلى القطاع الخاص، وانصرفت، كما ستفصل فيما بعد، إلى إسكان الأثرياء في مارينا ومراكب ومرافئ. وتبلغ تكلفة إنشاء شقة متواضعة في القاهرة (8000 جنيهًا) ما لا يقل عن عشرين ألف جنيه، وفواتر. مجرد فواتر هذا المبلغ تزيد على مائتين ومائتين جنيهًا شهريًا.

لإذا عرفنا أن إيراد الجانب الأكبر من عائلات الطبقة المتوسطة يبلغ بين 200 - 400 جنيه شهرياً، فإن الوزارة تكون بذلك قد خططت للإشراف والفساد للفتنة بالفتوح والفساد، ولهذا الموضوع، بخلق وضع تستحيل فيه المعيشة الشريفة المستقرة. وأنا
والله لا أعرف كيف يستطيع سياسي أن ينام ليله وهو يعرف أن سياسته ينتج عنها هذا الوضع.

ثالثا- إن الوزارة بانصرفها عن مشاكل الإسكان الحقيقية قد تسببت في الوضع الذي أدى إلى الفوضى السائدة الآن في موارد البناء (الأسمات والحدود) والفوضى في تراخيص الأبراج الشاهقة المخالفة; وتتكفل زيارة أي مسئول لمدينة نصر حيث ينص القانون على أنها تلتقي فيها البناء بأي حال عن أربعة طوابق لكشف مدى الفوضى والفساد الذي عم صناعة البناء. ولا عذر للوزارة بأن هذه مهمة التشريع أو الإشراف، فالقيادة الحقيقية ينبغي أن تناضل من أجل تصحيح هذه الأوضاع. فإذا وجدت أن طريقها مسدود فعليها الانسحاب تماما من هذا العبث الخطير بدل من الهروب إلى مارينا.

ربما - وتأتي إلى ما ارتكبته وزارة الإسكان في الشاطئ والساحل الشمالي: لقد كانت هذه المنطقة تمثل المصدر الأساسي للحبوب والحبوب أيام الإمبراطورية الرومانية إذ تتميز بوجود معركة وقرب المياه الجوفية وبإمكان لا يتأثر بها إذا خزنت لتضيف للمياه الجوفية، فإذا بوتيرة الإسكان تقدو حملة لتحلويها إلى غابات من الأسمات السهل تحيطها مساحات خضراء من الحشائش تكفي المياه التي تستهلك صيفا وشتا في رشاقاتها لرى آلاف من الأفندية المزروعة بعد تخفيفها بالمياه الجوفية. بل لقد بلغت مساحة آخر هذه القرى (مارينا) حجما يفوق مدينة كبيرة وصرف عليها المياه، منها عدة ملايين لإنشاء حواجز للأمواج ولإنشاء بحيرات صناعية وغير ذلك من مظاهر الترف.

ولمن كل هذا؟
لمجموعة من المترفين الذين يملكون عشرات القصور والفيلا في القري

37
السياحية المختلفة والذين يقضون على كل حال عطلتهم في فرنسا وأسبانيا.
и وهكذا تمتلك هذه القرى بآلاف الفيلات والشاليهات والشقق التي لا
يشغلها أصحابها لأكثر من أيام معدودة كل عام.
هل يمثل هذه السياسات أمناً قومياً؟
هل يمثل هذه السياسات ندفع الناس إلى الشعور بالانتماء؟
وأترك لخيال القارئ تصور ما قاله لي أحد رجال أمن مارينا أمام قصر أحد
كبار الصحفيين تعليقاً على الولائم التي تقام به والتي يستحضر لها أصناف
المأكولات من فرنسا...

ديسمبر 1992
آليات السوق

لم أصدق حرفا واحدا مما قاله الرجل، ورغم وجود علاقات وخطوط متوازية بين ما ذكره وبين ما عشنا في السنوات الأخيرة، فإنني متقن بأنه قد ألف هذه الحكاية من أولها إلى آخرها.

وعلى كل فقد تكون هذه الحكاية حقيقية، وقد يكون لها مغزى، ولما نضيع الوقت، سأقص عليكم هذه القصة التي يزعم صديقي أنها حدثت في إحدى بلدان عالمنا، عالم الجنوب، العالم الفقير، وسأحاول أن أخلص ما حكاه خلال أمسية طويلة في مشاهد ثلاثة قصيرة.

المشهد الأول:

ليل هادئ مضئ بسحاب مكتحل ونجوم ترقص سما صافية. على الأرض استقامت ظلالة العشاء، مليئة بأنواع اللحوم والخضروات والشوفان والفواكه. يlicher مع البخار المصاعد أريج التوابل المميزة للشيهة.

على رأس المائدة جلس الملك وحوله زوجاته وأبناؤه وبياته.

أجسام سوداء مستديرة لامعة يظهر بياض الأشبال والعيون الواسعة في نلام الليل وتبرز نهود الزوجات والبنات الكريمة العارية. وتزين صدور الأبناء تعزز الخرز وأنابيب الحيوانات.

يأكل الجميع في سعادة وحبور، فجأة لاحظ الملك وجمالا على ابنه الأكبر، الذي يجلس إلى حيته ويكشف أنه لا يقرب أطباق اللحم.

الملك: ماذا؟
الابن: ماشي.
قطع الملك «هيبرة» من اللحم بيده ودفع بها إلى الابن. ردها الابن برفع.
تغيب الملك وقطع قطعة أخرى من طبق آخر. رفض الابن أيضاً. عندما ألح الملك قال الابن بصوت فشل في أن يتحكم في نبراته: «مايكلشي بني آدمين».
الملك: «مايكلشي إيه؟».
الابن: «مايكلشي بني آدمين».
توقف الجميع عن الأكل. سكتت الحوارات الجانبية الضاحكة السعيدة.
أسلم الابن على الأسنان البيضاء الباسمة والجميلة. ولم تبق إلا العيون الواسعة المترقبة في الجو المتوتر.
نظر الملك فيما حوله بحرص، وتوجه بنظره تأنيب إلى الزوجات والأبناء.
فعادوا جميعاً إلى الأكل، وإن كان الإيقاع قد هبط وأصوات الضحك والحوار قد اختفت.

وهرة الحوار التالي:
الملك: «ليه بابني؟»
الابن: «سكتت...
الملك: «هو يا ابنى لو كانت الآفة مش عايزانا نأكل بني آدمين هل كانت خلقتهم بهذه الليلة بهذه الطراوة؟».
الابن: «مايكلشي بني آدمين»
الملك: «رغمها دول بني آدمين؟ دول أطفال أبناء الناس غلابة شرفاء مايحين. بببعهم أهلهم عشان يبدأوا بتغيمهم مشروع استثماري: كشك خرز وحلي، مطعم صغير، حانة بوطة... أم رقيق شريف. نحن نمر بطريقه...».
اقتصادية صعبة، وكل بلاد العالم فيها مصاعب اقتصادية...
الدين: "يمكن مساعدتهم بطرق أخرى".
الملك: "أحلام صيانية. عايزنا نمنع الناس إنها تبيع وتشربه زي ما
تحب؟ ده إللي تعلمه بره؟ ماسمعتش عن آليات السوق؟ ماسمعتش عن هوير
والآدم سبيت؟".
الدين: "سكتن... سكتن...
الملك: "ماسمعتش عن البنك الدولي وصندوق النقد?"
الدين: "سكتن... سكتن...
الملك: "نسيت جذورنا وتقاليدنا؟ راحت فين أخلاقيات القرية؟".
الدين: "سكتن...
الملك: "بلاش صندوق النقد... ماسمعتش عن يلتسين؟ ماسمعتش عن
فؤاد سلطان؟ ماسمعتش عن سعيد الجار وحازم بلالاوي؟".
الدين بانفعال شديد ودموغ منهمرة بهمهم ببعض الوقائع والأسماء:
سعد عالي - حديد وصلب - ألونموي - سماو - ناصر - عزيز صدقي -
سبوتنيك - تنمية - نمو 10% في الصين.
الملك وقت اندفع جدا واحمر وجهه (هكذا زعم صديقى.. أنا لا أعرف
كيف يحمص وجه رجل أسود) وارتفع صوته: "أعرس يا كاب - ملحد - شيوعى
- كافر - شمولي - أخر.. أخر.. أخر...".
وهكذا اتهوى المشهد الأول.
المشهد الثاني:
الملك يجلس على العرش وحوله الشيوخ والوزراء ورجال الأعمال بشنطهم
السامسونايت ونظارات البيرسول.

41
قال كبير السحرة: "هلغنا يا جلالة الملك محدث، كارثة بكافة المقاييس، وإن الآلهة غاضبة أشد الغضب، ولدى علامات عديدة منها تدل على أن ما صنعه ابنكم يستوجب بتره من المجتمع.

وزير الاقتصاد: "إن أي دراسة علمية جادة متأنية لهذا الموقف توضع مدى الكارثة، ماذا يريد ابن العزيز، هل نأكل البقرة؟ إننا نعيش على تصارع لحوم البقر والماشية، إن أي خطر على التجارة في لحوم الأطفال سيشتر غضب الهيئات الدولية.

ثم تحدث الوزير طولا عن اتفاقيات الأجانب والتنمية العالمي الجديد، وتحدث طويلة عن أهمية التصدير وقال: "إن كل ما نستورده من خز، وسكاكين وحرب يستدمنه مما نصدره من لحوم البقر.

تحدث رجل أعمال فقال: "إن الدولة الحديثة تعتمد في حياتها على الاستيراد والتصدير، وإن سياسة منع أكل الأطفال قد جريت من قبل في عصور شمولية وانتهت إلى كوارث، أوضح وهو يبتسم أن استيراد السكاكين يعود على الجاليين جميعا بالرفاهية والسعادة، ولا أريد أن أذكركم بالهدايا التي ترسلها لنا الشركات المنتجة في الغرب.

وحدثت وزير الإسكان فقال: "إن هذه "الเทคนلعة" الجديدة سوف تتسبب لو تركت في كوارث كبيرة، إن ترك هؤلاء الأطفال حتى يبلغوا سن الكبر سيؤدي إلى:

أولا - إنههم سيتزوون ويتنازلون.

ثانيا - سوف نضطر إلى ترك أطفالهم أيضا ليعتصموا ويتنازلوا ويتنازلوا ويتنازلوا ويتنازلوا.

المشكلة تفاقما لوحدة الدنيا، وسيطلب الجميع بخدمات وأعمال، بما لا طاقة لنا به.

42
ثالثاً - النهاية واحدة .. سيموتون جميعاً ..
عاد كبير السحرة إلى الكلام وقال: "إن كل طفل يكبر من هؤلاء الأطفال سيتسبب في غضب الآلهة غضبا شديداً.
يفتبر غير مقنع حاول الملك أن يدافع عن ابنه، ولم يقتنع أحد .. وأصدر المجتمعون الحكم.

وانتهى المشهد الثاني
المشهد الثالث:
نفس المنظر الأول: الزوجات والأبناء والبنات والابناء الأسماء والأبناء
اللامعة البيضاء والنجم الكبيرة وعقود الخرز والمكولات الشهية: 
على بيم الملك جلس ابن آخر يلبس نظارة بيرسول .. يقطع الملك "هيرة" من اللحم .. أكلها الابن بشراهة.
غاب الابن الأول عن مكانه .. ولكنه على أي حال - كان موجودا على المائدة .. في أطباق اللحوم.

ألم أقل لكم إنها قصة غير معبرة؟
ولكن .. ألا تذكركم هذه القصة «بدلاء جدده» نسمعه هذه الأيام؟

مايو 1993
الجذور الفكرية للعنف

نناقش كثيراً هذه الأيام عن واجبات جهاز الأمن في التعامل في العنف والإرهاب. ونذكر أحياناً دور التخطيط والتمويل الخارجي في هذه العملية. وتزداد دراساتنا عمقة فن تناقش أثر الوضع الاقتصادي والبطالة والفساد في استشراء الظاهرة. ولكن يخيل إلى أننا نغمض أعيننا عن وجه آخر مهم من أوجه المشكلة، وهو انتشار أسلوب معين في التفكير بين الطبقات نصف المتعلمة، وأن هذا الأسلوب قد لعب دوراً كبيراً في انتشار العنف والإرهاب.

وقد فجر هذا الاعتقاد ورسخه في نفسي حديث أستاذ القارئ أن أسرده:

تربطن علاقة عمل شباب أسواني، في أوائل العشرينيات من عمره، خريج أحد المعاهد الفنية، بشره الوجه، حسن المعشر، صادق وأمين، يختصر يملك من الخواص الإنسانية ما يضعه، مثل غيره من الشباب الأسواني، في قمة النوعيات البشرية.

منذ شهور لاحظت على الشباب تغييرات بسيطة في سلوكه، كان منها إطلاق لحية صغيرة وارتباطه الشديد بمجموعة من الشباب في مثل سن، وعندما بدأت حوادث السباخ الأجانب، وتجاوزها لما ظننا أنه يتسبب من مشاعر نحو الخسارة الاقتصادية الجسيمة لوطنه الكبير (مصر) ووطنه الأصغر (أوسلو) سألته عن رأيه فيما حدث.
فوجدت وفجعت بإجابته المترددة غير الحاسمة. وسألته ليه؟ قال «شورف يابي، القرش الحرام ما منوش فايدة». وعندما حاولت أن أحاوره قال مبتسماً بحزم مؤدب: «معلِّش يا دكتور سمير.. ده كلم رينا».

بتوجه نفس السؤال إلى العديد من الشباب الذي أراه في مساجح ثقافية متجاوبة المستوّى حصلت من كثير منهم على إجابات مشابهة: «حرام ولكن»... «حلال ولكن» ... «برضه لازم نتذكر» إلى آخر هذه الجمل التي لا يمكن أن توصف بأنها استنكار حاسم لا تردد فيه لهذا الإجرام. وتكرر أيضا الحديث عن «القرش الحرام».

وقبل أن ترتفع صيحات الغضب والاتهامات والسكاكين والنسج في وجهي فإني أود أن أؤكد احترامي الكامل لحق كل فرد في اعتقاداته عن الحلال والحرام، ولكن أن يصل هذا الاعتقاد إلى تطبيقه على الآخرين والقتل وتفيج القنابل، فهنا لابد من وقفة.

وقد يكون من المفيد أيضا في هذه المرحلة أن ألفت النظر إلى الأخطاء المنطقية الواضحة في هذا الموضوع: فبداية فإن تقسيم أنواع القرش إلى «قرش حلال» و«قرش حرám» عملية في منتهى الصغرى في هذه الأيام. وقد تكون قروش بعض رؤساء مجالس الإدارة أو المدرسين الذين يزرعون بذور الفتنة والكرهية والعنت أو السادة المدرج أسماؤهم في كشوف البركة، أكثر حراما من قروش نشال صغير. وعلاقة على هذا فإن قضايا القرش الحرام ليس من المؤكد أن يكون القتل، فقد يكون مثلا السجن أو الجلد.. إلخ. ولا أريد أن أضيف وقت القارئ في هذه المهارات فإن أي طفل متحضر يفكر تفكيرا سليما يستطيع أن يرد على هذا المنطق المتهافت.
من الواضح إذن أن هناك خطأ في المعهد الفكري قد أصاب جنوبًا من شبابنا في مقتب، وجعلهم لعبه سهولة التحريك في يد أناس يخرؤونهم لخدمة مصالح خاصة، ومن الواضح أيضاً أنه أصاب لنا من اجتهادات هذا الأسلوب في التفكير من جذوره لمواجهة هذا الموجة الشيطانية التي تواجه البلادنا هذه الأيام. ورغم الحساسية المتناهية لهذا الموضوع، ورغم الشعور بأننا يناظره يمر في أرض مليئة بالألفام فإن يا أبناء وضمنا الوطني وجينا للحقيقة بозвращ ولجيشة والمملكة تطلب منا أن نواجه هذه المشكلة بشجاعة وألا ننكلف عن ذلك مما كان حجماً ما تجلبه هذه المواجهة من متاعب.

وبداية فإن الدين في الإنسان سوية الفطرة، وهو إلى جانب الفنون والآداب، أحساس موجه لوجوديات البشرية، وبدون الوجوديات يصبح الإنسان وحشاً لا ضمير له. وقد عشنا في زمن سابق كان الدين فيه يختلف جداً هو عليه اليوم.

كان الدين همساً وعيداً وسلكاً، كان الدين حباً وصدقاً وطهارة وحرية وأخوة وعطفاً. ولم يكن الدين على الصورة التي نراها الآن من هؤلاء المهنين، عيساً وكرامية وديثاً وقسوة وضوضاء.

ولابد أن نتذكر أن هذه الظاهرة المنتشرة في العقود الأخيرة لا ينفرد بها الشباب من دين دون آخر. فأصول هذا الأسلوب في التفكير، وإن اختفت مظاهرها، موجودة في الشباب المسلم وفي الشباب القبطي أيضاً، فهنا وهناك.

نفس الجذور: الاهتمام بظهور الدين دون الجوهر، التركيز على الطقوس دون السلوك، الحديث عن غيبيات ومعجزات، وهمية في عصر انتهت فيه المعجزات، إساءة الظن بالآخرين والانفصال عنهم وبالتالي كراهيتهم، رفض الحوار: "أنت جاية تتعلم ولا جاية تجادل؟" ... وقد صحب هذا كله فقائد
الشعور بالانتماء للوطن.

فانشتر بين الأقباط استعمال أسماء أجنبية لأبنائهم: جورج بدلاً من جرجس، جون بدلاً من جنح، مايكل بدلاً من ميخائيل. إلخ، واشتهر بين الشباب المسلم رفض تحية علم مصر ورفض الولاء لها أو حتى للعروبة والجهر بالانتماء لإيران وأفغانستان وباكستان. الظاهرة عامة إذن، بل لقد اخترقت أجهزة الإعلام والتعليم. وهي بشكل عام تتميز بتغليب النقل على العقل ومحاربة الاجتهاد والتأويل. وعلاقة عما في هذه العملية من إغلاق للطريق أمام المستقبل والهجرة للماضي، فإنها دائماً تتمتع بذاكرة انتفائية تستخرج السيئ من التراث وتتجاهل المبهر والمضيء.

فهي تتجاهل ابن رشد وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبد وترتب بالغزالي والمودودي، وهي تفخر بأصولها في بغداد والموصل والقرويين وتتجاهل بل وتحض على كراهية أمجادها وأصولها الفرعونية. وهي تزعم لنفسها وحدها معرفة الحقيقية الإلهية، ومادام الأمر كذلك فإن غيرها كان يستحق العقاب الساحق في الدنيا والآخرة. ودراسة تاريخ البشرية ستكشف أن هذا النهج في التفكير يصاحب أشد فترات الظلم والتعاسة البشرية: ويكفي أن نتذكر محاكم التفتيش في عصور الظلمات.

وهناك عوامل عديدة لعبت دوراً أكيداً في انتشار هذا الفكر بيننا ولكن علينا أن نتذكر أن يدور هذه الفتنة قد زرعت أيام الاستعمار وأيام الحرب الباردة التي تلته. وقد عاش الشيوخ منا العلاقة الوثيقة بين السفارة البريطانية والسفارة الأمريكية وبين «إخوان الحرية» من المسيحيين المتمسحة بالدين، كما نعرف جميعاً دور المخابرات الأمريكية في تجنيد
تمهيد وتسليح "الأفغان العرب" في باكستان، والجنرالات الكاثوليك في أمريكا اللاتينية.

لابد لنا من مواجهة هذا الفكر، واجتثاثه من جذوره، بكل ما تملكه الدولة من أجهزة إعلام وتعليم وثقافة. فمن العبث مقاومة حركة يؤمن أفرادها بأن قتلاهم شهداء، وأن مجرميهم متساهلون، بالوسائل الأمنية، فكل مجرم يقبض عليه وراء عشرة يحلو مكانه، وكل مجرم يهرب يختفي مئات من المخدوعين وورواهم جميعا رجل مفتخر يزعم أن ما ينشره من كراهية وجهله هو "كلام رينا".

1993

يوليو
(9)
تراعم المعلومات والتطور

ما هي وحدة المعلومات - "المعلومة"؟ يمارس بعض المثقفين في بلدان العالم المختلفة مسابقة تدعى "نعم أو لا". ويمتازت هذه المسابقة بحول المتسابق أن يحدد شيئا مجهولا بتجهيز أسئلة تكون الإجابة عليها "نعم" أو "لا". فلكل الشيء المجهول للمتسابق هو "القرود" مشاة فقد تسير الأسئلة والإجابات في المسار الآتي:

1- هل هو جماد ؟ لا
2- هل هو جهوان ؟ نعم
3- هل هو جهوان لا فقير ؟ لا (وهنا يصبح المجهول: حيوانا فقيرا)
4- من الأسماك ؟ لا
5- من الزواحف ؟ لا
6- من الطيور ؟ لا
7- من الثدييات ؟ نعم
8- هل هو من القرارض ؟ لا
9- من الحيوانات الرئيسية Primates ؟ نعم
10- هل هو الليمور ؟ لا
11- هل هو القرود ؟ نعم
وهكنا يتم تحديد الشيء المطلوب بإحدى عشرة معلومة، بشرط توجيه الأسئلة الصحيحة.

تمثل هذا النظام عمل الكمبيوتر - فهو يعمل كما يعرف المتخصصون بنظام رياضي ثنائي (نعم أو لا) للحصول على أجوبة للأسئلة التي توجه إليها. تسمى وحدة المعلومات (المعلومة) في عالم الكمبيوتر باسم "بت".

Binary Digit وهي حروف مأخوذة من Binary. ومن الممكن تعريف التطور بأنه "تراكم المعلومات المكتسبة وتوريثها للأجيال المقبلة".

ويقدر العلماء عمر الأرض، أحد الكواكب التي تدور حول الشمس، بحوالي أربعة آلاف مليون سنة. خلال هذا الزمن حدثت تطورات كبيرة، تراكمت فوق بعضها البعض، بسرعتين متزايدتين، حتى وصلنا إلى ما نحن عليه الآن. بدأت أول ظاهرة الحياة، كما يفترض علماء الأحياء، بظاهرة كيميائية هي اتحاد ذرات من الأيونات والكربون والأوكسيجين والنيتروجين، بتأثير من الأشعة فوق البنفسجية التي كانت تصل كوكب الأرض من الشمس بكميات وافرة قبل وجود الأوكسيجين والأوزون في الغلاف الجوي. وكان نتيجة هذا الاتحاد الكيميائي جزيئاً كبيراً جداً يدعى بالحروف الأولى من اسمه Desoxyribonucleic- Acid D. N. A. د. ن. أ.

ويتميز هذا الجزيء - الذي يشبه في شكله السلم الحلووني - بمقدره على الانشقاق إلى جزئين يستكمل كل منهما نفسه من الجزيئات الموجودة بالبيئة المحيطة (المياه) - كما يتميز أيضاً بأربعة أنواع من الجزيئات موجودة على
درجات السلوم تشكل بترتيبيها شفرة خاصة قادرة على تكوين جزيئات مختلفة من الأحماض الأمينية والبروتينات التي هي أول عناصر الحياة. وبدخوت تغيرات في جزيئات الد. ن. أ. يتأثر الأشعة فوق البنفسجية (Mutations) وهو ما يطلق عليه الآن اسم طفرات (Mutations) التي تظهر تغيرات في مظاهر الحياة. وأنواع جديدة من الحيوانات اختفى منها الجانب الأكبر لعدم توافقه مع البيئة. وعاش وقي وتكاثر الجانب الآخر.

ويمتعد من العقارات في "ذاتي" الد. ن. أ. ظهرت أنواع من الحياة أكثر توافقاً مع البيئة التي تغيرت تغيراً كبيراً يظهر الأشجار التي تنغذى إلى جانب أصلابة أرية على ثاني أكسيد الكربون والطاقة الشمسية لتنتج الأوكسجين. وهكذا ظهر الأوكسجين في الغلاف الجوي.

وقد أدى اكتشاف كريج (الحاصل على جائزة نوبل) لهذا الجزء (د. ن. أ.) إلى خدمات جليلة جداً للإنسانية. فقد دخلت البشرية عصر الهندسة الوراثية وأصبح من الممكن بإدخال تعديلات في هذا الجزء إدخال صفات وراثية جديدة أحدثت ثورة في عالم الزراعة والطب - لعل أوضاع تماها هو تكوين نوع من البكتيريا قادر على صناعة الإنسولين البشرى. واستغذى بذلك مرضى السكر على الإنسولين الذين كان يستخرج عادة من بنكرياس الخنازير.

بظهر جزء الد. ن. أ. دخل كوكب الأرض في مرحلة جديدة من التغيير - في مرحلة تراكم المعلومات وتورثها: فكما أن شفرة "مورس" التي تستعمل في التلفزيون تحتوي على حروفين: نقطة وشريحة، فإن شريط الد. ن. أ. يحتوي على أربعة حروف تتكون منها كافة المعلومات اللازمة لصناعة المواد
الحياة. وكمية المعلومات الموجودة في شريط ال DNA. أ. لأسد مظاهر الحياة، وهي الفيروس، هي حوالي عشرة آلاف "بيت". أما في البكتيريا فهي مليون "بيت"; أما في الحوت وهو من الحيوانات الواقية الثديية فهي خمسة آلاف مليون (خمسة مليارات) "بيت".

وقد كانت هذه المرحلة من تراكب المعلومات مرحلة بطيئة جداً تطلبت أربعة بلايين سنة (أربعة آلاف مليون سنة) هي المرحلة الأولى لتراكب المعلومات.

ثم دخلت الكتلة الأرضية في مرحلة جديدة لتراكب المعلومات وازدادت سرعة التغيير لظهور البشرة المخية وظهرت المرحلة الثانية للمعلومات ...

Homo Sapiens- فقد مات عالم عام ظهر على سطح الأرض الجنس البشري piens المخية. إذ يتكون من الإنسان من أربعة أجزاء متطرفة في وظائفها من الداخل والخارج:

الجزء الأول ويدعى جذع المخ Brain Stem وهو الذي يقوم بالوظائف البيولوجية الأساسية كالتنفس وانتباه القلب إلخ ...

وفرع الجذع يوجد ما يسمى R. Complex الاجتماعي، والسيطرة على المكان. وهو يشبه ما كان عليه مغ الزوجات منذ ملايين السنين.

ثم يوجد بعد ذلك ما يسمى Limbic System وهو موجود في كل الحيوانات الثديية وهو مقر العواطف والانفعالات، وهو أيضاً موطن الحب والعناية بالآباء والشعور بالأمومة إلخ.

ثم يوجد فوق ذلك كله القشرة المخية Cerebral Cortex وهي
المسنولة عن حالتنا الوعيية، وعن الذاكرة، وعن الأفكار والتحليل والإلهام،
وهي في الخلاصة والنهاية مقر إنسانيتنا: فالحضارة هي نتاج القشرة
المخية. ولقد استكشف هيروفيلوس (من علماء مكتبة
الإسكندرية) منذ أكثر من ألفي عام، أن الدم وليس القلب أو الكبد هو مقر
العواطف والذكاء.

واللغة التي يستعملها الدم في تخزين المعلومات ليست هي لغة الدم. ن.
أ. لغة الدم. ن. أ. لغة كيميائية تتكون من حروف هي مركبات كيميائية، أما
لغة الدم التي يختزن فيها المعلومات فهي لغة فيزيائية.

يحتوي الدم البشري على حوالي مائة ألف مليون خلية تدعى كل واحدة
منها «عصبون» وتنفصل كل من هذه الخلايا بالآلاف التواصلات
الكهربائية بما يجاورها من خلايا - ولو أتبع لنا أن ندخل الدم أثناء عمله
لوجدنا ملايين من التواصلات تفتح وتغلق كل ثانية في مشتقات سريعة لتولد
أعمال معينة كحركة أو كلمة أو فكرة... إلخ.

ويظهر القشرة المخية - أعلى مكونات الدم البشري ظهرت طريقة جديدة
 примات لتراكم المعلومات. وتنزف القشرة المخية في الحيوانات الراقية
ثلث الدم، وتختزن في عصبوناتها حوالي مائة مليون «بت» (عشرة أربعة
عشر) بينما يختزن الدم. ن. أ. معلوماته كيميائية فإن الدم يختزن معلوماته
فيزيائية على شكل شحنات كهربائية تتفجر في ومضات. وهكذا ويشتهر هذه
الشوربة الجديدة في خزان المعلومات تغيير الإنسان من صياد جامع للثمار
إلى راع وزراع، وبينما استغرقت ثورة معلومات الد. هنتر جتير
ن. أ. حوالي أربعة ألاف مليون سنة استغرق تحول الإنسان من صائد إلى راع ثم
زارع حوالي مائة ألف عام.
ثم اكتشف الإنسان الكتابة...
وأكتشف الكتابة داخل الجنس البشري في مرحلة ثالثة تثبيت المعلومات:
Cunei - الهيروغليفية؛ ثم ابتدأ المصريون الكتابة على ورق البردى - form بالإنجليزية ومعطياتها في
اللغات الأخرى. وأكتشف الكتابة على الورق والمخطوطات، ثم الطباعة في
القرن الخامس عشر. ظهرت المرحلة الثالثة في المعلومات: فقد أمكن بذلك
نقل المعلومات الموجودة في مخ الإنسان وجزئها على شكل يوضع جانبا حتى
تتاح له الفرصة للازدهار بأن يقرأ إنسان آخر، وينقل ما في الكتب من
المعلومات إلى القشرة المحركة للقارئ.

وتحتوي المكتبات العظيمة على ملايين من الكتب، يزيد عدد ما فيها من
المعلومات عما يحتويه الشريط الوراثي لأرواح الحيوانات أو ما هو مخزون
في أي مخ (حوالي بليون بليون معلومة) وحري أن الإنسان لن يكون بمقدور
أي إنسان أن يقرأ كل ما هو موجود من الكتب لأن طاقة القراءة محدودة. وهنا
تظهر أهمية التنوع. فقراءة الكتب الرديئة أو الاكتفاء بعد قليل من الكتب
كلاهما عادات قبيحة تؤدي إلى التخلف، عكس التطور.

وتسمى المعلومات الموجودة في الكتب بالتغيير المستمر وفقاً لترابط
المعرفة: ولهوسبينا عدد الأجيال من بدأ ظهور المكتبات (مكتبة
الإسكندرية) لوجدنا أنه قد مر على إنشاء المكتبات حوالي خمسة وعشرين
قرنا تعاونت خلالها مناث الأجيال ولولا اكتشاف الكتابة والكتب لأصبح من

54
المستقبل انتقل ما توارثته البشرية من الخبرات والمعرفة خلال هذا الزمن. وكما تغيرت مظاهر الحياة خلال أربعة آلاف مليون عام بتراكم المعلومات على جزء الد. ن. أ. أو كما تغير (بظهور القشرة البخية كمخزن للمعلومات) أسلوب الحياة خلال مائة ألف عام من الصيد إلى الرعي إلى الزراعة. فقد تطورت حياة الجنس البشري، بظهور الكتابة للمعلومات، خلال ألفي عام من الرعي والزراعة إلى الصناعة والمدنية، وعلم والتكنولوجيا والطب والاتصالات... إلخ. ثم وصلنا إلى المرحلة الرابعة للمعلومات: ثورة الفيديو والكمبيوتر... ووصلنا إلى تغيير أسلوب الحياة عاماً بعد عاماً.

أكتوبر سنة 1994
كونه برثرية بيهوشفت للكلام

بعثة حزينة من آخر الحركات

ADAGIO

الحركة الأولى: بطيئ- عاطفي

تجمعنا وزوجي بالكاتبة كبيرة صافي ناز كاظم علاقة صداقة مؤسسين طويلة. بدأت تلك العلاقة منذ عودة صافي ناز من أمريكا، فشلت أنيقة مرحلة، أنهت دراستها للماجستير عن المسرح، واستمرت الصداقة بعد أن تزوجت. كثيرا ما قضينا ساعات سعيدة في شقتها البسيطة الأنيقة بمدينة نصر حيث التقينا بعشرات من أهم المثقفين المصريين والعرب، فكان من روادها المنتظرين أحمد بهاء الدين وصلاح جاهين وسامي الدروبي... إلخ.

وشارتنا إلى غرب أفريقيا وسافرت صافي ناز إلى العراق، واستمرت الصداقة والمشاعر عميقة تجري تحت الأرض وتظهر على السطح بين الحين والآخر: في مقالة تليفونية تفيدنا «وبأن معين مصر لا يُضِم» (تزوجت أحمد فؤاد نجم) ومقالة أخرى نصف لنا عن بعض مقالاتها (مثل مقالها عن يوسف بك وهربة وفاطمة رشدي وأمينة روزق) أو دعوة للغذاء أو للعشاء... واستمرت اللقاءات رغم ندرتها واستمرت الصداقة - بل وأكده أزمع أنها ازدادت عمقاً.

وتضمن الصداقات الوطيدة لصافي ناز كاظم، ما قد يبدو لبعض الناس متناقضة مع ما تبدو هي عليه الآن. فمن أعز أصدقائها الدكتور سعد لوقا.
استمرت صداقتنا إذن، ومازالت لصافى ناز ساعاتها المرحة، ومازالت تلك الفتاة البريئة ذات القلب الناصح البياض، القلبي بالحب للإنسانية ومازالت صافي ناز تلك الفتاة الذكية ذات الرأى الصائب المستنير خصوصاً في تخصصها (المسرح)، وذات التعبير المتميز في أفكارها وآرائها. ومازالت تلك الكاتبة الفتاة التي وصفها أحمد بهاء الدين في بداية ممارستها للكتابة بأنها ستكون من أفضل كاتبات مصر، مازالت لها دعاباتها وعبدها وشقاوتها اللطيفة التي - في رأي الذي قلته لها - "وباستعمال التعبير الشعبي - تودي النار حذف ما زالت هذه صافي ناز كاظم.

ولكن، رغم ذلك، فتتدرجيا تحول جانب من هذه الكاتبة الفتاة، إلى ما يطلق عليه أحيانا اسم "الأصولية الدينية": بداية من الزى الرسمي إلى رفضها مختلفة، إلى شكلة صحبتها سب مدعوم، عندما لمس أصبعى كتفيها غير قصد طبعاً وأنا أشير إلى شيء ما، مع أنى أعتبر نفسى شقيقاً كبيراً لها.

يتكون من هذه الصورة مكثمة، شيء ماتأفح، وأنى في سن يصبح فيه عدم فهم الناس ظاهرة خطيرة تزدهر وجدانى هذا عرفاً، وتتعلق "أكمل نفسى" لتصبح الأمور مفهومة، ولتكن حواراتى مع نفسى ومع غيرى، قد فنشت في حل هذا اللغز.

لماذا؟ وكيف ومتى؟ أين؟ تساؤلات ومحاورات مستمرة. وأحاول أحيانا أن النسق أوجه الصواب في موقفها، وأذكر مقوله الإمام الشافعي "بأن رأى صواب يجب أن الخطأ وأن رأيها خطاً يتحمل الصواب".

57
الحركة الثانية (سريعة نوعاً ما - ريفية) - PASTORAL

قضيت ورجعت في ثلاثة أسابيع في مصحة في قرية تدعى بيتشتاني في سلوفاكيا (الجزء الزراعي من تشوكسلوفاكيا سابقا) في محاولة لترميم ما أكل عليه الدُّهور وشرب من الجسد. كانت أيام سعيدة وجميلة. وكان معنا مجموعة رائعة من المصريين الذين خدموا وطنهم بل وإنسانية في أكثر من موقع دون ضجة إعلامية: كان معنا د. مصطفى طلبة، رجل البيئة الأول في العالم والمدير السابق لـ«بمسار» لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة. وكان معنا د. أسامة أمين الخولي الذي أدخل علم الطيران في كليات الهندسة في مصر والملحق الثقافي لمصر في موسكو سابقا ومستشار مركز البحوث العلمية في الكويت سابقا. وكان معنا أيضا الدكتور حسين فوزي، أساتذة البنات والملحق الثقافي في سويسرا ونجله، الدكتور محمد الحلفاوي، أساتذة الكيمياء وأحد قادة منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (العالم الممثل نبيل الحلفاوي). كنا إذن مجموعة من «سابقا» وإن كان أغلبنا مازالت به الطاقة والحيوية للعمل الدائم المستمر بعد فترات الاستجمام في خدمة الوطن والإنسانية.

في هذه المصحة وفي هذه القرية الصغيرة عشنا جميعا لمدة ثلاثة أسابيع خضنا فيها لأنواع عديدة من الفحوصات والعلاجات والتمرينات والحمامات. والمصحة رائعة والعناية فائقة والجمال والنظام يسود السكان والأعمال مدمنة ... ولكن ما لفت نظرنا جميعا هو البشر.

يعيش أهل القرية، كما يعيش جانب كبير من سكان هذا الكوكب، في
جانب كبير من بلاد العالم (رغم الإشعاعات المغرضة) معيشة يسيطة سعيدة. يعمل الناس رجلا ونساء صباوا ويخروجون عند المغرب للتمتعية: الأزواجه والزوجات متعاقبين في سعادة وعلى وجههم الابتسامات والمدابيات، الأزواج والزوجات من الشباب يسيرون بعريات أطفالهم، الشباب الصغار يركبون الدراجات.. الجميع يلبسون ملابس خفيفة ملائمة للجو في الصيف، ليس هناك اهتمام كبير بما يظهر وما تخفي من الجسد، فجسد المرأة - الذي يتحول في السنين الأخيرة عندنا إلى المقياس الأول والوحيد للشرف والكرامة والرهبة والطهارة - مثل جسد الرجل، لا يبعث فكرة فاسدا عندهم إلا في عقل فاسد. الدهدء شاميل؛ الكل يتكلم بصوت منخفض، لا ميكروفونات ولا ترانزاسترات ولا كلاكتات.. إلى آخر هذه القائمة الطويلة من المستلزمات في عالمنا.

يعيش معنا في المصحة مجموعة من الأخوة أثرياء النفط، للأخوة أثرياء النفط يباسهم الخاص: المشداشة على الرأس، والشيشب أو الصندل في القدم. الجلباب أبيض، وفي الجيب دائما قلم كروس. يجلس الأخوة العرب القرفصاء على الكراسي في لوبي المصحة، صوتهم عال في الحوار - والحوار دائما عن الدولارات - وهم يدخنون بشرابة ومصرية، ويذوقون بقشر المرز في معرقات المصحة ويطقرون السجائر في أحضار الزرع الداخلية.

يرافق بعض الأخوة النفطيين زوجاتهم، وهن عادة يلبسن ملابس سوداء أو لأزياء التي اقتصستها عنهن في مصر خلال السنوات الأخيرة. يعملن صباها في الطبخ في غرف النوم ويجذبن مساء لشراء طبخة الغد، ويسرن أحيانا في مجموعات خلف أزواجهن أو يجلسن على الأرض في درائر يدور الهمس
بينهن وترتفع بين الحين والآخر صيحات عجيبة، ويصرخ أولادهن دائما طالبين حلوى أو نقوداً. وبين الحين والآخر نسمع صيحات غير معتادة من السيدان والرجال السلوفان، فنكتشف أن هؤلاء الأطفال يقومون بخلع الزهور من الأحواض بغير رادع من أهلهم.

يسير الأخوة النفطيين أحياناً برؤوسهم عارية وبجلباب شفاف يكشف عن ملابسهم الداخلية ويسير خلفهم زوجاتهم بزيهم المعتاد. ويقضي الشباب العرّب أغلب الوقت في الكافيتريا وقد استقطبوا الصامرات القليلين الموجودات في سلوفاكيا.

**ALLEGRO**

الحركة الثالثة (غنائية سريعة)

تقام في بيتشتاني حفلات موسيقية ليلية. في إحدى هذه الحفلات قدم كونشرتو برهونين للكمان والأوركسترا في مقام راً الكبير. كانت العازفة المنفردة يابانية، وكان الأوركسترا يشمل عازفين من كل أنحاء العالم كروبين وألمان وهنود وأفارقة وفرنسيين إلخ. كان الحضور أيضاً عالمياً: من جميع أنحاء العالم بعض المصاححات الموجودة في القرية وأولاد البلد أي السلوفاك. تقبع العازفة شامخة، بشعرها المنобрعلى كتفها. تعزف بثقة ومقدرة، تخرج من أصبعها أجمل وأرق المشاعر. كان الحضور يجلس في صمت ونصت إلى هذه الموسيقى في هذا الجو الشعبي إلخ الكل يقدمه بسكينة وهدوء وسعادة، الجميع في حالة سمو ورقة الأرواح ترتفع إلى السماء.

لم يكن في القاعة أي ممثل عن أثرياء النفع

***

٦٠
الحركة الرابعة (بكائية سريعة)

( Schnitzol)

يا إلى! أنتسب Dé ثقافة النفط بثقافتنا المستنيرة؟ أنتسب Dé ثقافة نشلت
رغم بلايين الدولارات أو جدتها الصدفة في خلق صناعة أو علم أو تقدم بثقافة
لطفى السيد وره حسن وسلامة موسى ونجيب محفوظ؟ أنتسب Dé ثقافة
القشور والمؤثر والضوضاء والتصايع والخطب المتشنجة بثقافتنا ذات
المضمون المستنير والتلفهم على Middleware الهادى الهام؟ أنتسبث ثقافة
يرتكب شرفها على جسد المرأة وتقدم أدبها على غزوة الغارهم وتختصر
كل المقايس والفضائل وتضط كسرور إلى ما يتعلق بأصباه الأثري وصوتها
واسمها وشعرها؟ أنتسب Dé ثقافة ضحلة لا تقدر الموسيقى بثقافة أنتجب جمال
عبد الرحيم وأبو بكر خيرت وعزيز الشوان وسماحة الخولى وحسن شرارة؟
أنتسب Dé ثقافة ضحلة لا تعتر الفن بثقافة أنتجب جاذبية سرى ومحمد سعيد
وحسن بيكار ومحى الدين حسين؟
أنتسبك في تنا أبناء الحضارات الفرعونية والإغريقية والرومانية والإسلامية
ثقافتنا إلى ثقافة النفط التي بدت ثرواتها على السفاهات والتلفات والتي
لم تبن مصنعا ولا أسست مسرحا ولا أنشأت حضارة.
أمثل هذه الثقافة سد خل القرن الواحد والعشرين؟
عزيزي صافي ناز
أغرفي لي، فقد وصلت إلى سن لا تسمح لي بأن أتمهل أو أتردد فيما أقول.
ولتعتبر هذا اجتهادا، فإذا أصبت في نوابان وإذا جايني التوفيق على ضوء.
رحمةك يا رب لهذا البلد الأمين.
أكتوبر سنة 1993

61
(11)
صداع مزمّن .. آلام في الظهر .. وعاء في الاكتاف
كلام عن شرف الكلمة
مع بلوغ أزرّ الامبراطور، تتلكّأ عليه آلام والأوجاع، ويدقق فينا قول
الشاعر
رماني الدهر بالأوجاع حتى
فؤادى في غلاف من نبال
فكنت إذا أصابتني الرزابا
تكسرت النصال على النصال
وكلما تذكرت كلام الشعراء عن الكلمة، وشرف الكلمة - رحم الله شاعرنا
صلاح عبد الصبور - ورأيت موجي واثبت على الرزابا.
بدأ صاعدي في الأربعينيات .. فبعد سقوط وزارة الوحدة حصل الكاتب
الكبير مصطفى أمين من أحمد حسين باشا (مربي الملك فاروق، وزوج الملكة
ناظمة، ورئيس الديوان الملكي) على المساندة والدعم، لإصدار مجلة تعبّر عن
تحالف القصر الملكي، والسفارة البريطانية، والأحزاب التابعة (السعوديون
والدستوريون والكثيرة)، وكان الهدف الأساسي للملحمة هو تحفيز حزب الوفد
الناطق برسالة القرى الوطنية في ذلك الوقت.
بدأت المجلة هجومها بالمدفعية الثقيلة: سلسلة مقالات مشرّعة بعنوان "لماذا

62
سات العلاقات بين الوفد والسراء، لوت فيها عنق التاريخ وحولت حادث 4 فبراير (الذي اضطر فيه الإنجليز لحرج موقفهم في شمال أفريقيا)، لطلب حكومة وطنية يرضي عنها الشعب، إلى خيانة من الوفد لملوك البلاد وعمالة للإنجليز. وتمكنت المجلة بتلك الأدبيات التاريخية من تلطيخ سمعة الوفد، بل واستفاقتها بجانب كبارها من ضباط الجيش (ومنهم بعض قادة 3 يوليو) إلى جانب "الملوك الشاب المحبوب" ضد الوفد.

بمساهمة كبار الكتاب والمفكرين في ذلك الوقت (العقاد - سلامة موسي - توفيق الحكيم...) أصبحت المجلة واسعة الاشتراك، وأصبح يوم السبت، يوم صدور المجلة، بمحتواها المسموم الفظيع بالعمل، وبحجمها الضخم، وبمباحثها المغرية وصورها المشهورة، يوم صادع لنا نحن شباب تلك الأيام، لجهومهم يهجرون بلدهم والمغيمين بسلاسل تحالف الإنجليز والسراء على شعوب البلد.

استعملت الجريدة بذكاء سلاح الإثارة بالخبر (رجل ينكر كلب) وكان من أطرف ما نعره قضية "الجمل". كانت القصة عن جمل هرب وهو في طريقه إلى السلخانة ولجأ إلى ساحات سرايا الملكية. فما كان من "الملك الشاب المحبوب" إلا أن أصدر أمره بوضع الجمل تحت الرعاية السامية. وبأن يترك يرعي ويلعب في مزارع السرايا الملكية، التي كان يدح فيها البشر على الفلاحين بيوميا. وتأمل من الواضح الإعلامي: لم يكن الأمر يتعلق بجاموس أو بيضة، بل بجمل وللجمل كما نعرف في العقل الباطن للشعوب العربية، تعلم من خزوة...

وهيذا بدأت آلام الصدام القاتل كل يوم سبت وازدهرت وتزورعت.
ثم أضاف لهذا الصداع آلامٍ في الظاهر وأوجاع في الأكتاف:
في وسط الأربعينات نشرت أخبار اليوم سلسلة مقالات عن "رهبان الليل وفرسان النهار" الذين "يزيد عدهم على المليون"، وأتضم عضو جديد إلى تحالف السرى والإنجليز، وأحزاب الأقلية:
كانت "اللجنة الوطنية للطلبة والعمال" المكونة من تحالف الطليعة الرفيعة واليسار تواجه في هذا الوقت القوى المضادة المكونة من أحزاب الأقلية والسررى والإنجليز، وجهز الإعلام الضخم المسمى "أخبار اليوم". وكان الهدف الأساسي للقوى الوطنية هو التصدي لاتفاقيات خبيثة مع الإنجليز خطط لها رئيس الوزراء السابق إسماعيل صدقي باشا. ووسط المعارك الدائرية التي تبلورت فيها أيام خالدة في تاريخ نضال مصر (يوم الجلاء - معركة كوبري عباس - يوم الحداد .. إلخ)، انشقت الأرث وظهر الحليف الجديد؛ وقت مصطفى مؤمن زعيم الإخوان المسلمين في الجامعة وخطب مقارنة بين إسماعيل صدقي باشا وبين إسماعيل النبي ومستشهدها بآيات من القرآن الكريم على صدق إسماعيل (صدقي) في ودوه ..!!.
وإنها لنبابيت الإخوان وجنازيرهم (لم تكن تكنولوجيا السنج والسيف قد اكتشفت في ذلك الوقت) على الكفرة والملحدين وعملاء الروس الشيوعيين الذين يعارضون إسماعيل باشا صدقي .. صادق الوفد ..
وأضاف إلى الصداع المزمن آلام جسمانية عضوية في الظاهر والأكتاف ..
كلما عادتني تذكرئ مننظر النبايات والجنازير والوجه العابرة ذات الذوق، وسقطت حكومات الأقلية وجهات حكومة رفيعة برئاسة مصطفى النحاس، رغم أنف السرى والإنجليز، بعد انتخابات أجراه حسن سرى باشا.
واكتشفها الوفد... واستمرت المجلة في ولاتها للسرائ
كان جلالة "الملك الشاب" قد تفرغ في ذلك الوقت للغزوات النسائية، وفى
إحدى هذه الغزوات أصيب جلالته في حادث مدينة "القصاصين" اضطر بعده
للرقاكة في مستشفى. فكتب الكاتب الكبير مقالة طويلا في أخبار اليوم
يحكى فيه كيف أنه أثناء مرور جلالة "الملك الشاب" لتفقد أحوال رعيته،
tعرض جلالته لحادث رقد بسببه في القصاصين وقال الكاتب إنه ذهب لتقدم
فروع الولاء والتحية لملك الشاب في مستشفى وأن دموعه أثناء رحلة
السيارة كانت تتهالى على خده بكاء على الفضيلة والرفاء، ووصف التنافض
بين موقف الملك الشاب وموقف مصطفى النحاس رئيس الوزراء الذي تأخر
عن زيارة الملك المحروم لمدة 44 ساعة، وتحضر الكاتب الكبير علي هذه
الأيام السوداء التي ساد فيها الحقد والتي يطم رفعت فيها الفاشلون الناجحين
بخناجر الحقد في ظهورهم بدلًا من أن يطبعهم بالورود والرياحين والحب (ففي
بطورهم؟).
وسارت المظاهرات حول مستشفى القصاصين من كشافة وجوالة المدارس
والإخوان تحيي "الفاروقة" وتهتف له "صباح الخير" صباحا و"مساء الخير"
مساء... الي أن تم شفاء الملك المحروم.
وتحركت مواجهات وأزداد صداعي واشتعلت آلام الظهر والأكتاف.
ثم جاءت ثورة 14 يوليو وسقطت الملكية وانشغال الشعب والإعلام
بالمشاريع القومية المتعددة - ردم العدران الثلاثة - التصنيع - الإصلاح
الزراعى - السد العالي... وزالت أغلب أسباب الآلام والأوجاع... إلا بقايا
سخيفة من النفاق هنا وهناك.
وجاء أنور السادات، والانفتاح الس之道 مداح، وعادت ريمة لعادتها القديمة. وتكررت مهزلة "لماذا ساءت العلاقات بين الزين والسرائ". بدأ قدماء المناfindViewById حملات مفترقة كاذبة عن ذمة عبد الناصر وعن حكم عبد الناصر .. بدأت "إزالة آثار" فترة حكم عبد الناصر.

وامتدت المدرسة من أيام السبت إلى بقية الأيام وأصبحت كل أيام الأسبوع أيام سبت وأيام نكاح.

كان من المعالم المبكرة لهذه الفترة حديث "المونرويل".

بدأ على أمين سلسلة مقالات وأحاديث مع الرئيس المؤمن عن انتماء أيام اشتراكية الفقر وبداية عصر الكفاية والرخاء، وكيف أن القاهرة سيصبح مثل طوكيو في سنين معدودة، ثم بدأت مناقشة تفاصيل المونرويل الذي سيحل أزمة مواصلات القاهرة: وكانت أعقد هذه المشاكل هي: هل تكون تذكرة المونرويل بخمسة قروش أم بثلاثة قروش؟ إن الهيئات التي تخطط للمشروع صممت على أن تكون بخمسة قروش ولكن الرئيس المؤمن اعتراض وطلب أن تخفف الأجرة إلى ثلاثة قروش تلبية لطالب الشعب .. واستمر النقاش، واستمر الصداع، واستمرت الآلام.

وتكررت كوميديا "الجمل":

"الرئيس أنور السادات يحل أزمة المواصلات".

ففي إحدى جولاته رأى الرئيس المؤمن سيدة قفالة تسيرة على قدميها فأوقف سيارته وطلب منها أن توصلها، وأصدر أمره الكريم بأن تحمل سيارات رئاسة الجمهورية المواطنين في مشوارهم الخاصة .. ثم جاء حادث المنصة.

66
وأصدر الرئيس الجديد حسن مبارك تعليقاته بعدم نشر إعلانات مدفعية لأجر محلا بصرورته، وأبدى رغبيته في الامتناع عن حملات النفاق المعنادة.
ولكن بوادر الشر الكامنة قدّر لها أن تعود الى النمو الانزدحاب، وظهر رؤساء مجالس إدارة مؤسسات صحفية كبيرة وكل مؤهلاتهم هو النفاق بلا خجل.
وتحول الإعلام التلفزيوني الى إعلان كرهه الناس وانصرفوا عنه إلى النشالسي إن إن وأفلام الفيديو، وانتشارت بين الناس مقوله على بن أبي طالب، 
"هذا حق يراد به فاطمي والله فأمر في أغلب الوقت فاطمي يراد به فاطمي.
ثم جاءت أيام المبايعة والاستفتاء!!!
آه يا رأسي ..
آه يا كتفي ..
آه يا ظهري ..
حرام والله حرام
هل ذهب "شرف الكلمة" الى غير عودة؟
سماح الله أحمد حسنين باشا).
الكابوس

- وهل أكل السمك مع اللبن ضار؟

* السمك بارد واللبن بارد وأكل البارد مع البارد يسبب في الإسهال.

- وما هي أشد أمراض القلب؟

* الحسد

- وكيف تكون الرقاية منه؟

* الحسود جشع، ادعه للغذاء فسيقبل. وساعة الصلاةراعي بانقطاع السياح، واطلبي منه الوضوء في طبق

واغتصلي أنت بهذا الماء بعده، يقيك من حسده.

) نماذج من برامج التلفزيون الثقافية في مشارف القرن الواحد والعشرين.

) وإليك غيرها:

عدد إلى المنزل مثقلا بالتعب، لم أعد قادرا على تحمل متابعة يوم عمل، وجلست مشلولا أمام الشاشة الصغيرة.

أعزائي كل أفراد الأسرة في كل مكان، أسمحوا لي أن «استحبكم» من الآن

وحتى نهاية السهرة حيث أقدم لكم كل جديد وجميل ورائع ورائع ورائع.

إذا كنت أيها المشاهد من مراحل المسلسلات الأجنبية وأدرت أن تعرف ماذا فعل ريدج بيروك فيمكنك معرفة ذلك من خلال المسلسل الليالي الساعة الواحدة صباحاً، أما إذا كنت أيها المشاهد من هواة المحافظة على الصحة فإني أدعوك معنا للالتزام

حول الشاشة الصغيرة لمشاهدة برامجنا الصحية.

٦٨
رفعت يدي بسرعة لمنع ابنى من حركة سخيفة اعتاد عليها كلما دعته السيدة المذيعة "للللفتات" حول الشاشة الصغيرة.

وغفوت لثوان معدودات...

واستيقظت، فرأيت على الشاشة الصغيرة، سيدة أخرى وأمامها رجل بجلباب: يمكن لو حبيتي نستغنى عن مصانع الطبيب والعلاج بالكيمياويات الضارة وكده، ويمكن لو حبيتي حد يساعدنا على هذه العملية، وزي ماتم عاونون إتى بنتقدم لكم أحدث ما في العالم وكده، نتوجه من خلال هذا البرنامج للمعلم خالد العطار ليقوم بالإجابة على هذه التساؤلات بنظرة مستقبلية.

- لو حبيتي يا معلم نتكلم عن العلاج الأكيد للكحة وكشرة النفس والحمى نقول إيه؟

* شوفي يا ستي: تأخذ بردقوش، ونحتر عليه عين المفريت وشبهة حلف بر
ونغليهم وشرب متقوعهم.

- طبيب مش ممكن نحتر عليه شوية حلنجان؟

* ممكن طبعا.

* وشوية حنظل؟

* طبعا.

* ومفعوله أكيد؟

* أكيد طبعا.

خطر بالي خاطر مزعج: كم ظفل مضام بالتهاب رئوي ستتعرض حيائه للخطر بعد هذا البرنامج العلمي الشيق "طبعا".

وغفوت قليلا على هذا إلخاطر المزعج.

19
واسبقت ورأيت مذيعا آخر ذا جهة ضيقة، كثير الحركة والنشاط والكلام، يحدث آخر يسأل عن نوع مختلف من أنواع العلاج.

- وهل ينفع هذا العلاج؟

* أكيد بإذن الله

- في جميع الأمراض؟

* بالطبع هناك قلة من الأمراض التي تحتاج إلى جراحة وما إلى ذلك من تلك الأمور التي تدرس في مدارس الطب.

- كيف يمكن التمييز؟

* في أمراض النوع الأول يستطيع الخبر أن يسمى في غرفة المريض رائحة روث الجآن..

ومن نومنا عميقا، يكاد يشبه الإغماء. ورأيت فيما يرى النائم مني ضحاما عليه لوحة كبيرة "المقر الدائم للجآن العلمية الدائمة".

أه.. هذا هو عقل مصر.. هذا هو المكان الذي يحدد هذه التوسعية من رجال المستقبل، هذا البشر، الجدير بلقب "أستاذ".. ورأيت باقية كبيرة "قطع الطب"، ودخلت ورأيت قاعات عديدة "علم التشريح"، "علم وظائف الأعضاء" ثم "علم العقاقير".. ووُلّجت الباب بهدوء، واحترام يليق بهيبة المكان، قاعة ضخمة واسعة بسقف مرتفع مائدة مستديرة بجلس حولها الأساتذة العظام: عبد الوهاب البرلسلي، عصام جلال، صلاح عبد النور، زينب حلمي، جيده غالب وجلس حولهم أبناؤهم، وعلى رؤوس جميع علامات اليأس، بالغيرة أكواب من الفراق المليئة بالأعشاب التي تقدم بها الباحثون للترقية لدرجة أستاذ،
وفي أبدى الأساتذة العالم أوراق صفراء هي الأبحاث المقدمة للترقية: «سرعة امتصاص الحلفير من الوجبة وإفرازه في البول» - «العسل الأبيض في علاج ارماض العين» - «تفاعل عين العفرة إذا استعمل في نفس الوقت مع الحلنجان» - «علاقة مستوى الدم بالفاعية في استعمال الحلنجان لتفريق الكبد».

أغلقت باب القاعة في هدوء وعده للتنقل بين القاعات «اللجنة الدائمة لعلم النقل في الطبيعة» ورحلت إلى الداخل في هدوء واحترام شديد، في الصدر يجلس الأساتذة عبد الفتاح فهمي، أحمد عبد الحفيظ سليمان، ناصح أمين، وحولهم يجلس أبناؤهم وعلى وجوههم وجه pièمة وألم في أيديهم أوراق صفراء أخرى: «دراسة عن تصبح أنواع الروث في غرفة المرضى بالفحص الميكروسكوبى» - «استعمال الكروموجرافى في تحديد أنواع الروث» هل ينتج عن استعمال بعض أنواع الأعشاب رائحة تشابه رائحة روث الجوان؟

«أثر الطفيليات على رائحة روث الجوان»

خرجت مكتبة، وأثناء خروجها لاحظت تش맥ات خطيرة في المدينة، ولكنها أقبلت بابا - بتشخر شخير مروع.

وشكرته لإنقاذها من الكابوس.

قرأت لحكم مصرى، نسيت اسمه، أن ظاهرة الإرهاب المعاصرة ناتجة عن اختلال التوازن بين كفاءة جهاز التلفزيون في إنتاج الإرهابيين ومقدرة جهاز الأمن على التخلص منهم.

الرحمة.. الرحمة.. أما لهذا الإطالة من نهاية؟

يائورة سنة 1994
معامرة تليفزيونية

جاء تشوقها عبر أسلاك الهاتف
- السلام عليكم (متجاهلة تعليمات الشيخ عبد الكافي)
- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته (منتها رفرفة في جدار الشيخ
عبد الكافي)
- منزل الدكتور سعيد منتى
- أبوه يا فندم
- الدكتور موجود؟
- أنا يا فندم
- هنا التليفزيون، أنا السيدة فاطمة عبد الفتاح، معدة برنامج "حوار حر
وحار" على القناة الثامنة، سبادتك مدعو للاشتراك في حلقة من البرنامج
تسجل غداً إنشاء الله
- تحت أمرك يا فندم
- سبادتك تشرف في مبنى التليفزيون الساعة التاسعة مساءً. سيكون هناك
خبر بذلك في المدخل وتسجيل البرنامج في ستوديو ٨٧. سيدير الحوار
الأستاذ أمجد سعيد.
- طيب ممكن أعرف موضوع الحوار ..
- بكره إنشاء الله تعرف من الأستاذ أمجد.

٧٢
شكرًا يا افتدم
الشكر لله السلام عليكم (مرة أخرى متجاهلة للتعليمات).
عليكم السلام ورحمة الله وبركاته (مرة أخرى منتهى الفرصة).
وضعت السماعة وأنا أرتقد فرحاً.. أخيراً.. أخيراً سأصبح مثل نجمة الكرة والغنية والمشهورة.. أخيراً سأصبح الوضع، أو كما ردد دائماً الزعيم المؤمن «لا يصبح إلا الصحيح».
وتذكرت ما حدث لشقيقتي الدكتور مراد متي.. كان مراد عالم جيولوجيا لا يعرفه أحد ثم أدعت له الإذاعة المشهورة سفيحة الحبل حقيقة عن الزلازل تكررت إذاعتها عدة مرات فأصبح شقيقتي بين يوم وليلة نجباً إعلامياً وأصبحت أنا «شقيق مراد متي» رغم أنني أكبر منه سناً.
لم أن تذكرها هذه الليلة..
حاولت أن أتوقع كافة مواجهات الحوار.. أعددت نفسي لكافة الأسئلة...
عاشت نفسي أن أتخلى عن رغبي السخيفة الدائمة في الخلاف وأن أبتعد عن المشاكل التي طالما فقدته الأصدقاء، وأفندت السهرات بمارساتها.
ويث أحلام بصورة الأستاذ أسعد سعيد بصوته الرخم، شعره الأحمر الأنيق، يبتهج في نفسه وهو يلقب القول بعد الآخر مصاحبة مقولاته باهتزاز رأسه يميناً وشمالاً لتأكيد أهمية وصحة ما يؤكده...

بدأت أزمنى ملايسى في تمام الساعة الخامسة مساءً في اليوم التالي، قالت لي زوجتي «لسه بدرى» قلت لها «عليمتي أمي أنني يمكنني أن أنتظر القطار...
ولكن القطار لن ينتظرني، وتوجهت بسيارتي إلى مبنى التلفزيون. وكما توقعت لم أحد مكانا لركن السيارة إلا بعد مبنى وزارة الخارجية.

كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف، فسرت الهوائي على الرصيف المجاور للنهر، يبدو أن من التأثيرات الحضارية للتلفزيون انتشر الفتيات وأغلبهم من المحجبات اللاتي يتبادلن الابتسامات ولمسات اليد البريئة والنظارات الشفافة الخجولة مع من معهن من الشباب أمام مبنى التلفزيون، ويساعد على دفع هذا الجر الممتع المرح انتشار باعة البيض والترمس والفول واللب.

وجلست على بدن أمام مبنى التلفزيون. في تمام الساعة التاسعة إلا خمس دقائق ارتفعت السلام الخارجية للمبنى. ولاحظت لنشو الجو العائلي الذي يسود المكان إذ يجلس موظفو الاستقبال محاطين بزوجاتهم وأطفالهم وأشقائهم وشقيقاتهم الذين يحتلون مقاعد الانتظار في جو أسرى طريف.

سألني أحدهم: انتدق؟ فأفادته باسمي وبغيري حضوري، فنظر في دفتر أمامه ثم نادى: يا على عندك سعيد متي؟ أجاب على بالنفسي، عبد الباطع عندك سعيد متي؟ أجاب عبد الباطع أيضا بالنفسي وأخيرا اكتشف أحدهم اسمي وسمع لي بالدخول إلى ستوديو 78.

يااه...

هل هذا هو المكان الذي تصدر منه هذه الإعلانات الرائعة والسهرات الفخمة؟

لا يختلف مبنى التلفزيون من الداخل عن مستشفى الدم، ذات نفس البياض الكلاه.. نفس السلام المكسارة.. نفس التراب والعفار.. نفس الغرف
المضافة بالخشب الحبيبي .. وقالت في نفسي «لهذا أصبح كذلك ليعبر عن
واقعنا وبضائنا وأخلاقنا وتقاليدنا» .. واطمن أن قلبي بعض الشيء فقد عشت في
مستشفى الدمرداش. ما يزيد على أربعين عاما واعتدت على هذا الجو.
وارتقى السلام إلى ستوديو 87.
غرفة واسعة عارية: الأرضية عارية من السجاد .. الجدران عارية من
الدهانات .. أركان الغرف عارية من النظافة .. ليس بالغرفة إلا آلات التصوير
والإضاءة .. وفي ركن منها مجموعة من الكراسي حولها بعض النباتات
البلاستيك المتزئة.
على كرسي منها يجلس الأستاذ أمجد سعيد وعلى وجهه علامات الملل
والقرف .. وقعت بضع دقائق حائرا ثم حضر ضيفان آخرين وأشار إليهم الأستاذ
أمجد بالجلس بجواره.
وبدون أيّة مقدمات أشار الأستاذ أمجد ببيده فأضنف الأنوار وجرى اختبار
سريع لصوته .. ثم بدأ التصوير.

......

سيداتي وساداتي: لا يستطيع إلا حادث كاذب عدو لوطنه ولاهل أن ينكر ما
تحقيق من حريتٌ وديمقراطية في هذه الأيام التاريخية المجيدة التي نعيشها.
فلم تصل الحرية والديمقراطية في أي وقت طويل سبعة آلاف عام من تاريخنا
إلى هذا المدى الذي نعيشه الآن والذي يضاهي بل يتفوق على ممارسات أعتى
الديمقراطيات الغربية.
معنا الليلة من الحزب الوطني المحامي الكبير الأستاذ عبد الصبور عبد
الباقى ومن حزب الأمة الأستاذ صباحي حسين صباحي .. ومن حزب التجمع

75
الدكتور سعيد متأثر في لقاء تسوية الحياة والمادية للنظام مزيداً من الضوء على
ما نتمتع به من حرية وديمقراطية.

أستاذ عبد الصبور - ما رأيك فيما نعيشه الآن؟

ع ص: الحقيقة يا أستاذ أمجد - وليس تلقا لأنه - إننا حقيقة نعيش
فترة لم يمر على مصرنا الحبيبة حقيقة فترة تماثلها في روعتها من قبل.
أ: أس: أستاذ صبيحي وما رأيك أنت؟ هل توافق على ذلك؟
ص ح: طبعا طبعا، هذه حقائق نعرفها جميعاً ولا ينكرها أحد، يكفي
أنا نعرف أننا بعد هذا الحوار الحر ستعود إلى منازلنا آمنين. وفي عصر
الشوروية المظلمة لم يكن الأمر كذلك.
أ: أس: وأنت يا دكتور سعيد هل توافق؟
ص م: نعم ولكن...

ستوبة

بإشارة من الأستاذ أمجد سعيد توقفت كاميرات التصوير وانطلقت السماء
على الأرض وكاد أن يغمي على .. عملتها تأتي يا سعيد يا متي؟
أ: أس: ولكن إيه يا دكتور سعيد؟
ص م: لأ، بر ملحوظة صغيرة كنت أتمنى أن أقول إن أحد متطلبات
الديمقراطية هو المعلومة الصحيحة وأن حرية الحصول على المعلومات هي
حق مكفل في كافة الديمقراطيات وأن هذه الحرية غير متوافرة لدينا وأن...
أ: أس مقاطعا: لا يا سيد متي .. مش عايزين فلسفة. إحنا هنا في التليفزيون
مش في كلية الحقوق. من فضلك خليك معانا وماتخرجي عن الخط.

بإشارة من يد الأستاذ أمجد سعيد عاد التصوير ثانية.
أما: وما رأى السادة الضيوف فيما تمتع به مصرينا الآن من وجود أحزاب للمعارضة تمارس حقوقها في إبادة الرأي.

 فإن حقيقة - لم يعش عصر من العصور ما نعيشه الآن ولا تكتمل الحرية إلا بالديمقراطية حقيقة ولا تكتمل الديمقراطية إلا بالحياة الحزبية، ولم يجرد دولة من الدول بما نتمطبه به الآن من تعدد الأحزاب حقيقة، يوحي أن نعرف أننا سنعود بعد أن أبدينا رأينا بصحة فيما نعيشه وأننا لن نضارد في أرزاقنا كما كان يحدث في الماضي حقيقة.

 صحيح: الحقيقة يا أستاذ أمجد - وليس هذا تلميذا لأحد - إننا نعيش فترة لم تره مصر منذ سبعين ألف عام.

س، ممحاولا تفادي الخطأ السابق: طبعا هذا كلام صحيح ولكن...

تحقيق وجه الأستاذ أمجد سعيد وتمتلء في كرسيه ولكنه اشتر بإصبعه للمصورين لم يتمروا في التصوير، فتشجعت ولت:

ولكن وجود الأحزاب المعارضة لا يكفي في ذاته لضمان الديمقراطية إذ يجب إثارة وسائل الإعلام الجماهيرية للأحزاب حتى يتعرف عليها الشعب وحتى تتمكن من أن تقول كلمتها وتتبدي رأيها، وأنا أظن أن التليفزيون قد قصر في هذا المجال، فرغم أننا قد رأينا على شاشته كل زعامة العالم (ومنهم بيريز وروبينز) عشرات المرات ورغم أننا تعرضنا على أراء كافية لاعبي الكرة والفنانين في كل شيء، رغم هذا، فنحن هناك نمعنون إعلاميا على قادة المعارضة وعلى رأيها، بل إننا أزعم أن هذا الموقف من التليفزيون قد تسبب فيما نحن فيه الآن، فلم يعد هناك منتفخ لرأي الشعب ولا مكان للتعبير عن آماله وآلامه إلا في دور العبادة وفي التشكيك في العقيدة، ولو أن جماهير
الشعب قد استمعت إلى آراء المعارضة الشرعية في وسائل الإعلام الجماهيرية
الجبارة مثل التلفزيون والإذاعة والصحف القومية فلربما كان هذا مبعوثًا لشئ
من الأمل في مستقبل يصحب التغيير بالوسائل الشرعية.

نظر إلى الأستاذ أ miejs نظرة احتقار صفاء وقال «خلصت يا سيد متي؟»

س م: نعم وشكراً.

أ س: سياداتي وساداتي ونتمتع جميعاً بهذه الحرية وهذه الديمقراطية في جو
دولة المؤسسات، فتشريعاتها الأساسية قررها مجلس الشعب الذي ينتخب
أعضاؤه بانتخابات حرة وسليمة وصحفتنا القومية يديرها مجلس الشورى
الذي ينتخب أعضاؤه أيضاً بانتخابات حرة وسليمة تتنافس فيها الأحزاب
ليقول الشعب كلمته الحرة. وما رأي السادة الضيوف؟

ع ص: كما قلت يا أستاذ أمجد، حقيقة لم تتمتع مصر حقيقة بانتخابات حرة
وسليمة مثلما تمتعت حقيقة في العصور الحالية ولم نر في مصر سابقاً حقيقة أو
في أي بلد عربي أو في بلد آخر حقيقة مثل هذه المناقشات الحرة والمعارضة
النشطة في المجالس المنتخبة.

ص ح ص: ويكفي أن نستمع إلى ممثل حزيناً في مجلس الشورى عندما
يرتفع صوتهم بالمقاومة الحرة النزيهة وهم يعلمون أنهم سيعودون إلى منزلهم
بعد إبداء رأيهم على عكس ما كان يحدث في الماضي.

س م: كل هذا جميل ولكن ... (تجهم وجه الأستاذ أمجد مرة أخرى ولكنه
أشار بإصبعه للمصورين بالاستمرار في التصوير)؛ ولكن المسألة بسيطة جداً:
إن الحكومة تزعم في كل الانتخابات والاستفتاءات أن عدد الحضور يتراوح
بين 60 و 80 في المائة. ولا تحتاج المسألة لأكثر من أن يجمع طالب بأحد

78
أقسام الإحصاء عينية عشوائية من الشعب المصرى لكي يثبت بالدليل الإحصائي القاطع أن الشعب قد مل هذه الانتخابات وأن من يحضر لا يتعدي 5 إلي 10 في المائة وأن بقى الأصوات غير معروفة المصدر. مع ما يحمله هذا من معان لعل أخطرها تحطيم ثقة الشعب في كل ما تقوله الحكومة، وهو وضع خطر ما بعده خطر.

بسخرية وضحكه هازنة قال الأساتذة أباد: ده كلام كبير قوى يا سيد متي، شكرى لكم جميعاً.

وانصرفنا وفي يوم إذاعة الحوار جلست للاستماع اليه ولتسجيله.. ودار البرنامج بكل ما قاله الأساتذة أباد سعيد والأستاذ عبد الصبور والأستاذ صباحي، أما ما قلته أنا فقد اختصر إلي:

نعم طبعا هذا كلام صحيح وهذا جميل جدا.

وهنا الأساتذة أمجاد سعيد الحوار كالآتي:

"سيداتي وساداتي وهكذا يظهر نور الحقيقة، وهكذا ترفع أعلام الديمقراطية، وهكذا نرى رآيات الحرية تعلو وترتفع لتبتخرق أعين كل حاقد كاذب بشهادة الحكومة والمعارضة.

شكرى لكم ولى لقاء آخر.

مايو سنة 1994"
حوارات حول حفريات

يبدو الآن في الأوساط المثقفة في العالم المتحضر حوارات حول مقالتين تم نشرهما في الأسابيع الأخيرة في مجلتين من أهم المجلات العلمية وأوسعها انتشارا وهما نيعشر SCIENCE ومساينس NATURE المقالاتان حفريات تتعلق بالجنس البشري. وعلم الحفريات هو نوع من أهم فروع المعرفة PALAENTOLOGY الحديثة. ويدرس هذا العلم بقايا وأثار النباتات والحيزيات المحفوظة عبر مئات الملايين من السنين. وقد تكون هذه الحفريات من مواد صلبة: عظام أو قوفات مخلة، أو من بقايا حشرات أو نباتات محفوظة داخل بلورات طبيعية، أو من أثار أقدام... إلخ. ويحدد عمر هذه الحفريات بإحدى طرقتين أما بدراسة مكوناتها الذرية أو بتحديد عمر طبقة التربة التي وجدت بها.

وثبت هذه الحفريات أن مهد الجنس البشري هو أفريقيا، وباكتشاف دونالد جونسون عام 1974 في الحبشة لعظام ما كان يطلق عليه اسم "الحلفة المفقودة" اكتمل تصوير العلماء للمراحل التي مر بها ظهور الجنس البشري وانتشاره من أفريقيا لأوروبا وأسيا. وباختصار شديد كانت هذه المراحل كالآتي: AUSTRALOPITHICOS AFARENSIS (الحلفة المفقودة)
هو أول حيوان ثديي يقف تماماً على قدميه وقد مكنه هذا من تحرير يديه - الأمر الذي أدى في المستقبل إلى نمو مخه. ويقدر عمر ما وجد من هياكل هذا الجنس بحوالى أربعة ملايين سنة. (الإنسان القادر على استعمال اليدين) وكان HOMO HABILIS يتمتع بحجمه أكبر وكان قادراً على صنع بعض الأدوات الحجرية. ويقدر عمر ما وجد من هياكل هذا الجنس بحوالى مليون ونصف مليون عام. في أفريقيا وجاوه (أندونيسيا) وفرنسا والصين والهند وقد كان هذا الجنس قادراً على استعمال النار وصناعة آلات حجرية معقدة تترك العديد منها. HOMO SAPIENS كبيراً ويتغير شكل الوجه إلى ما هو عليه الآن. هذه هي المراحل ولكن علام بدور الحوار؟

يدور الحوار الآن حول قضيتين:

القضية الأولى: متى نشأ الإنسان الواقف؟ HOMO ERECTUS لقد سبق تقدير عمر أقدم حفريات هذا الجنس بحوالى مليون سنة ولكن ثبت الآن بالدليل القاطع أن عمر أحد هياكل العظمية التي وجدت في جاوه يقدر بحوالى مليون عام، وهذا الكشف الأخير يوضح الكثير من المفاهيم عن نشأة وتطور الجنس البشري.

القضية الثانية: هل اكتشاف هياكل من الجنس البشري في الصين قدر عمره بحوالى مائتي ألف عام وهو مشابه في SAPIENS
تفاصيل عظام جمجمته لسكان الصين الحاليين، ويطرح هذا الكشف الأخير رداً جزئياً على تساؤل يدور كثيراً في الأوساط العلمية.
هل نشأ الإنسان العاقل في أفريقيا ثم هاجر إلى HOMO SAPIENS في جميع أنحاء العالم مما إلى اختفاء الإنسان الواقف HOMO ERECTUS في هذه البلاد؟ أو أن الإنسان الواقف قد تطور في بقاع العالم المختلفة TUS كل على حدة إلى الإنسان العاقل؟ ويزيد الاكتشاف الأخير في الصين الفرض الثاني.
وهكذا تستمر التساؤلات المهمة التي تلقى أضواء على تفهما لخواصا النفسية والعصبية الاجتماعية، وتؤدي إلى الإجابة على أسئلة: متي وكيف وأين ظهر الجنس البشري؟

يونية 1994
عصر المعلومات

يذكرون كتاب الدكتور نبيل على عن "العرب وعصر المعلومات" بأن البشرية في عصرنا هذا قد بدأت تت finanzi ما هي "المعلوم" وما أهميتها في عالمنا الحديث. وفي الحقيقة فإننا لم تأملنا في تطور الجنس البشري من الفيروس إلى العالم الجناس إلى الكمبيوتر لاكتشافي Homo Sapiens Natural selection أن هذا التطور قد تم بالسيراك الاختياري للمعلومات وأن هذا السيراك قد تم في مراحله الأولى بيولوجيا على شريط الد. ن. أ. دراكيت الوراثي الموجود في كل خلية حية، ثم بعد ذلك حدد السيراك في D.N.A القشرة المهينة ثم في الكتب ثم على دسكات الكمبيوتر. وتعرف وحدة المعلومات باسم بيت (Binary digie) ويحتوي الشريط الوراثي لأصغر الفيروسات على عشرة آلاف بيت على حين يحتوي الشريط الوراثي لأكبر الخلايا (الحبيبة) على خمس آلاف مليون بيت. ويتكون شريط ال (Desoxy riboncleic acid) دي. ن. أ. الوراثي الموجود في نواة كل خلية حية من جزئ يشابه في شكله السلم الحلزوني. وتتكون درجات هذا السلم من أربع أنواع من الجزيئات النتروجينية تتآلف من تتبعها شفرة خاصة بتكون كافة مركبات الكائن الحي. ولعله لم يدر بخال كريج (Kriig) عندما اكتشف هذا الشريط الوراثي مدى الثورة التي سيحدثها اكتشافه في العلم وفي التكنولوجيا. فقد كلف أن نتذكر...
مثالًا في مجال العلم أن جهاز قراءة الشريط الوراثي في أي شجرة أو فأر أو سمكة يمكنه قراءة شريط الوراثة الخاص بالإنسان. مع ملاحظته هذه الحقيقة العلمية من "وجدانيات" جميلة عن وحدة الحياة. أما في ميادين التكنولوجيا التطبيقية فالآفاق واسعة لا تستطيع أن ترى مداها حتى الآن.

وقد تم بالفعل الوصول إلى تكنولوجيات مهمة مثل تزويد ميكروب القولون بشريط صناعة الأنسولين البشري وتحويل هذا الميكروب إلى صانع E.coli لهذه المادة واستعمالها بدلا من استعمال أنسولين الخنازير الذي كنا ومازالت نستعمله أحيانًا حتى الآن. وتجرى محاولات الآن لتنفيذ فكرة الأستاذ الدكتور أحمد مستجيب، عميد كلية الزراعة بإنتاج الحبوب من نبات البورص الذي يعيش في المياه المالحة (وهذا من نفس عائلات النباتات المنتجة للحبوب) لإنتاج الفناء من نباتات تعيش في الماء المالح. وله أخطر التطبيقات في هذا المجال هو ما نشر هذا الأسبوع في مجلة Nature عن التمكن من توليد نوع من الفئران مبرمج لإنتاج الأجسام المناعية الخاصة بالإنسان. فمن شبه المؤكد أن مثل هذه التكنولوجيا تستحدث ثورة في علاج الأمراض الفيروسية (كالإيدز والالتهابات الكبد) والميكروبية والسرطانية وتخطط مراكز البحث في العالم المتقدم لعمل خرطة للشريط الوراثي الكامل للإنسان مما سيجعل الوقاية والعلاج من الأمراض الوراثية في متناول اليد.

وهكذا يتقدم العلم في خدمة البشرية. وهكنا يدرس العلماء المشاكل لبعث السعادة في الأطفال والحبور في الشيوخ والحرية والإبتسامة للمرأة والقوة
والصحة للشباب بدلاً من الانصراف إلى دراسة الشعاب الأثر والتحريض على طب الأعشاب واستبدال «حلال مبوتدع» و«حرام مختصر» بالخير والشر ثم الهروب إلى مراكز العلم في العالم المتقدم عند الإصابة بأخف الوعكات.
في انتظار عودة المكتبة

في الليالي المظلمة يفتقد البدر. وفي ظلام التخلف والردة تفتقد
الاستنارة ولم يمر بمصر عصر ازدهرت فيه الاستنارة واستنارت فيه العلوم
والفنون كما حدث في العصر الذي شهد وجود مكتبة الإسكندرية.

أنشأ المكتبة بطليموس فيلادلفوس أكبر Ptolemy Philadelphus أبناء بطليموس الأول حوالي عام 300 قبل الميلاد واستمرت المكتبة في
العمل والعطاء بعد ذلك لمدة حوالي سبعية قرون. لم تكن مكتبة الإسكندرية
مجرد مكتبة فقد كانت في الحقيقة ما يطلق عليها اسم ميورزيم
وهو المعبد المخصص عند الإغريق لآلهات تسمى (Museum)
مغيرات (Muses) وهي آلهات لكل ما يتعلق بالعلم والفنون والآداب بل
كانت المكتبة بحق أول مركز للبحوث العلمية في العالم وبعد أن تحطمت
المكتبة على أيدي أعداء المعرفة وملوك الظلم كان انتظار البشرية حوالي خمسة
عشر قرنا حتى تتكبر التجربة وحتى تنشأ المعامل العلمية من جديد.

كانت المكتبة تحتوي على عشر قاعات كبرى للأبحاث العلمية كل منها
مخصص لدراسة معينة وكانت تحتوي على معامل للتشريح وحقائق للحيوانات
والنباتات. وكانت المعامل محاطة بقاعات الدرس والمناقشة وإلى جوار هذا
كله كانت توجد قاعات الكتب الضخمة التي تحتوي على مئات الآلاف من

86
واللفات» البردية المكتوبة في كافة العلوم والفنون ولم يبق من هذا الصريح
الضخم في الإسكندرية الآن سوى «السرابيوم» وهو ملحق للمكتبة
في المعامل وفي قاعات المناقشة أزدهرت عبقريات مئات من الفلسفة
والعلماء والفنانين فقد كانت الإسكندرية في ذلك الوقت هي أعظم مدن
الكوكب وكانت المكتبة هي عقل المدينة ومجدها ونورها وكان بطن المدينة
المقدونيون والأثرياء والإغراديا وكِنَّ يأتي إليها زوار من القارة وأفريقيا
السوداء والهنود والتجار اليهود وكان الجميع عيشون كما أوصاهم الإسكندر
الأكبر في ظل حضارة تشجع احترام الثقافات الأخرى وتم كونها بالتفتح للتقدم
الحضاري.

دعم ملوك البطالمة المكتبة والعلم والفن بكل طاقاتهم وهو شيء كان مازال
ناهي الحدوث بين الملوك والقادة وكانت المراكز التي تمر بالإسكندرية تفش
بدقة ليس لنهب الذهب والثروات أو البحث عن المهربات وإنما لاستعارة ما
عليها من مخطوطات ثم نسخها بسرعة وإعادتها لأصحابها.

في عصر بطيسيموس الثالث مثلا استعارات المكتبة النسخ الأصلية
Aeschylus و Sophocles و Euripides و...
عاش في المكتبة منذ 2200 عام وأدارها إبرطوسفينيس العظيم -shenes- الذي تمكن بدقة ملاحظاته أن يثبت أن الأرض كروية وأن يقيس محليتها ونصف قطرها وكان زملاء إبرطوسفينيس يطلقون عليه اسم "بيتا" (ثاني حرف الهجاء في لغات عديدة) لأنه في زعمهم الرجل الثاني في كل أفرع العلم والأدب ولكن إبرطوسفينيس كان بلا شك الرجل الأول الذي حدد مقاييس الكرة الأرضية.

قرأ هذا العبقرى العظيم في إحدى ملفات البردى أن الشمس في ظهر يوم 21 يونيو من كل عام تتعامد على مدينة سيبين (أسوان الآن) Syene بجوار الشلال الأول للنيل وأن المسلاط في هذا الوقت تصبح لا ظل لها وأنه ممكن في هذه اللحظة وفي هذه اللحظة فقط من كل عام رؤية انعكاس قرص الشمس على سطح المياه في الآبار العميقة.

وضع إبرطوسفينيس عصا رأسية في نفس الوقت في الإسكندرية ووجد للعصا فلا وتعجب العالم العبقرى فإن أشعة الشمس لبدها تسقط موازية على سطح الأرض فإذا كانت الأرض مسطحة فلا بد للأشياء الرأسية جميعا أن تكون لها نفس الزاوية من أشعة الشمس في كل وقت وفي كل مكان وهكذا استنتج إبرطوسفينيس أن الأرض كروية.

ولم يكف العالم العبقرى بذلك بل تمكن بقياس زاوية سقوط أشعة الشمس على العصا الرأسية في الإسكندرية في 21 يونيو ظهر (7 درجات) وقياس المسافة بين أسوان والإسكندرية (حوالي 800 كيلومتر) من أن يثبت أن محيط الأرض حوالي 360,000 كيلومتر (13.6 عل 7 في 200) وهو رقم لا يختلف الإنسبية ضئيلة عن أدق الحسابات الحديثة ولهذا بأدوات بسيطة.
ويحب شديد للحقيقة تمكن ايرطوستينيس من قياس محيط الأرض قبل
الميلاد بمائتي عام بل تنبأ بأن الرحلات في المستقبل سوف تسافر غربا من
أوروبا إلى الهند.
درس وعمل في المكتبة أيضا أقليداس أبو الهندسة الإقليدية وهو الذي وضع
أسس العلم الذي أثار روح البحث والتساؤل في كيبل ونيوتن وباينشتين
وكم قال شاعرنا المرحوم فتحي سعيد pler,
Newton and Einstein
للملك الذي أمره أن يعلمه الشعر ألا الشعر يا مولاي قال أقليداس لملكه الذي
طلب منه أن يعلمه الهندسة «مولاي لا يوجد طريق ملكي للهندسة».
درس وبحث في المكتبة أيضا ديوينيسيوس
أبو اللغويات
الذي حلل الكلام إلى مكونات وكتب أول دراسات في فقه اللغة وكان ما فعله
ديوينيسيوس للغاية مثل مافياله أقليداس للهندسة. ودرس كتابات ديوينيسيوس
Noam
بعده آلاف العلماء منذ هذه الوقت حتى وصلنا إلى ناوم تشومسكي
زمالاته.
Dionysius
Chomsky
كما عاش أيضا في المكتبة هيروفيلس
عالم الفسيولوجيا
Hirophiles
(علم وظائف الأعضاء.) كان العالم قبل هيروفيلس يعتقد أن القلب هو مكان
الوعي والمعرفة فسحح هيروفيلس هذا المفهوم وأثبت أن المخ وليس القلب هو
مكان العواطف والوعي والمعرفة.
واخترع في معامل المكتبة الطبيب الذي مازال يستعمل حتى الآن في
الزراعة في مصر. اخترع هذا الجهاز أرشيميدس
Archimedes
المهندسين العظام وهو العالم الذي اكتشف طريقة تمييز الذهب باستعمال
Eureka
الكثافة النوعية والذي يحكى عنه أنه صاح في الحمام وجدتها

89
عندما برقت الفكرة في ذهن، لم يكن كوير نيكس Copernicus مرکز الكون، بل هي كوكب من الشمس فسمث باتركون الذي عمل في مكتبة الإسكندرية والذي سبق Aristarchus of Samos كوير نيكس في اكتشافه بحوالي عشرين قرناً.
وهيذا كانت المكتبة مذارة للعلم والأدب والمفاهيم، جمع فيها ترات العالم من الكتاب، ويكفي أن تذكر أن "العهد القديم" الذي نمتورله الآن، قد حفظه لنا هذه المكتبة بترجمتها له، كما ازدهرت أيضاً هذه العبقرات العلمية التي وضعت الكثير من الأسس التي مازلتانا نبني عليها حتى الآن.
ثم جاءت عصور الظلم.
كانت آخر العلماء العظام في تلك المنارة الحضارية المبهرة هي Hypatia. ولدت هذه العالمة حوالي عام 370 ميلادية ونبغت وتفوقت في الرياضيات والفلك. وكانت الإسكندرية في تلك الوقت قد بدأت تلاقي الأذى تحت سطوة الحكم الرومان ومعهم قادة الكنيسة، كانت كراهية سيريل Cynil (كبرلس) - بابا الإسكندرية في ذلك الوقت لهيباشيا- شديدة، فقد كانت هذه السيئة رمزاً لحرية العقل والاستنارة. وهكذا أطلق سيريل الدهماء على هيباشيا فانزاعوها من عريتها ومزقوا ملابسها ولومها أيضاً.
وسقطت المكتبة بعد ذلك صريعة تحت أقدام قوى الظلام وضاع أعلى ما جمع فيها من مخطوطات يكفي أن تذكر منها مائة وثلاثة وعشرين مسرحية لسوفيكليس Sophocles، لم يبق منها للبشرية سوى بضع.
وهكذا انتهت منازة الحضارة والعلم واحتاج العالم أن ينتظر خمسة عشر قرناً حتى تتكون هذه التجربة الفريدة في تاريخ البشرية.
1994 يوليو
الخصخصة التهمام...
أو الموت الزؤام!!

الأَيُّ الفاضل الأَستاذ/ خالد محيى الدين
رئيس حزب التجمع الوطني التقدمي الوطنى

تحية واحتراماً;

أُتشرف بعرض الآتي على سيادتكم:

فبعد تفكير طويل وعميق، ومتمت في رأسي فكرة تعالج ما أعانيه من
صداع مستمر.
تعلمن سيادتكم السبب الرئيسي في هذا الصداع: فإن السادة المحكمين
في شؤون الاقتصاد والإعلام في بلدنا يوجرون أدمغتنا يومياً بحديث مستمر
عن "الاقتصاد الحر" و"آليات السوق" و"الخصخصة" و"الضار "التخطيط"
الذي هو من صنات الأنظمة الشمولية .. إلخ ويستند منطق هذا الحديث دائماً
على أن أمور القطاع العام "سائبة" لا صاحب لها، أما أمور الشركات
الخاصة فلها صاحب يهتم بها ويواليها، وأكنا الخواجة فوره، والسيد روشيلد واللورد روكفلر يتركون بخوتهم في الريفية كل صباح ليمروا على مصانعهم ومحلاتهم للإشراف على نقودهم، وأنتم ولاشك تعلمون ما في هذا المنطق من مغالطة: ففي الصين الاشتراكية وفي نمور آسيا الرأسمالية لا تعالج مشاكل التنمية بمثل هذه الخفة.

وأما وقد تعنيا من مباراة شد الحبل هذه والتي تبدأ دائماً بتأكيد عدم المساس، ثم التزدوج والتفكير، ثم استناد القناعات الدينية، ثم التفكير، ثم البيع، أما وقد أنهكت أنفسنا هذه المباراة الخاسرة غير المتكافئة، التي يمثل فيها الطرف الآخر قوى لا خول لنا بها ولا قوة. من دول عظمي إلى بنك دولي، إلى صندوق النقد، إلى حكومة، إلى بعض أحزاب المعارضة، إلى كتاب مؤلفين ومنظرين، أما وهذه المباراة في شد الحبل تنتهي دائماً بانكفتانا على وجوهنا وسط شمامة الآخرين وضحكتهم وسخرتيهم. عنايا لنا على إنشغالا بمشترين بلدنا ومستقبل فقرائنا. أما وهنا كله... فإني أقترح الآتي: أقترح ببساطة أن نترك الحبل فجأة فيقع الآخرون على مؤخرتهم وتنكش عوراتهم ونضحك نحن... مرة من نفسها.

تسألني كما سأل الملك بيدا الفيلسوف "كيف كان ذلك؟" أقول لك: أقترح أن يصدر حزب التجمع بيانا يطالب فيه بتمام الخصخصة: أولًا - بيع قنوات التلفزيون والإذاعة والصحف القومية، وهي في أغلبها من الصناعات الخاسرة المكلفة. وسيحقق هذا البيع الأهداف التالية:

1 - التخلص من الضغط النفسي والغرف اليومي من تفاهات "أعزائي كل أفراد الأسرة في كل يوم وكل زمان"... ومن دجل المتحدثين عن "... 17 امرأة
صباحا ومثلها مساء"... وعن العلاج من الحسد بالاستخدام في ماء اغتسال الحاسد... ونصب اللقاءات عن طب العطارين والعلاقات... ومن مقالات المحررين عن "أمجد أيام جريتنا وديمقراطيتنا". عن اللقاءات التاريخية والخطاب التاريخي والقرارات التاريخية ... إلخ.

- من المؤكد أن عائد البيع سيتحقق سويا سوف يكفي لسداد ديوننا - عفوا الله عمن تسبب فيها - والخلاص من تحكم الهيئات الدولية في اقتصادنا وزرعنا وريعنا وشرائنا.

ثانياً - (وأنا أرجو أولاً من القانونيين في حزب التجمع دراسة شرعية ودستورية وقانونية هذا الاقتراح قبل التقدم به). إنه لما كان المال الساكن يعلم السرقة. ولما كان هناك من يزعم بأن "البلد مالهاش صاحب" فإن المنطق الطبيعي يتطلب أن يصبح لمصر صاحب يملكها ويدفعها لحسابه الخاص. لهذا أقترح أن يطلب التجمع "بخصصة" الدولة. فإن الدولة التي لا تستطيع أن تدير شركة كوكا كولا بكفاءة، لن تستطيع أن تدير مصر. ويمكن تصور أنظمة مختلفة لهذه العملية تناولها تفصيلها (بعد اتياح حكم الدستور) مع البنك الدولي وصندوق النقد والدكتور يوسف غالي والدكتور بوسف وإلى.

وهذا نربح بالنا ونخلص ذمنا، ونوضح للجميع فساد منطق الخصخصة الجزئية.

وتفسحوا سيادتكم بقبول وافر الاحترام...

يوليو 1994
ضريئة التملق
دراسة مقدمة للدكتور الرزاز

يطلقنا صندوق النقد والبنك الدولي بالإصلاح الهيكلي للاقتصاد.
ولقد نجحت حكومتنا السنوية خلال خطوات وطيدة ورشيدة في "إعادة الهيكلة" بسياسة حكيمة تتمثل في خليط من إلغاء الدعم، وبيع قطاع الأعمال وفرض الضرائب الاستهلاكية غير المباشرة على الشعب بأكمله.
ولقد كان الدكتور الرزاز بطلًا مغوارًا في هذه العملية، تحمل الكثير من قرارات يقع وزرائها على الحكومة بأكملها، واقتحم أماكن ما كانت تخطط على أعتى المشرعين والمفكرين الاقتصاديين.
ولكن يبدو أن غرق الدكتور الرزاز في تفاصيل ما دخل فيه من معارك حتى مع الصحف القومية، ومع نواب الحزب الوطنى، قد شغله عن رؤية بعض النقاط المهمة، ولذا فقد نسي نشاطا اقتصاديا مهماً تدور في حلقاته آلاف الملايين من الجنيهات ويشكل بنفسه طاقة محرقة لعمليات واسعة النطاق.
يتحصل القائمون بها على ثروات دولارية ضخمة: هذه الصناعة هي صناعة "الملق.
ولسوف يدخل الدكتور الرزاز التاريخ من أوسع أبوابه إذا استمع إلى تصريحات وتمكن من فرض ضريبة على هذه الصناعة لتفقهها وعمل وضوابط لها حتى لا تصبح "سماح مانا" فهي صناعة وطنية ترعى وتزدهر في
السنوات الأخيرة، وحملناها الكثير من أعمدة حياتنا الإعلامية والثقافية والفكرية، ولذا ينبغي حمايتها وتنظيمها - علاوة على الحصيلة الضخمة التي ستعود على الاقتصاد القومي - ويكفي أن نتذكر مثلما كان يمكن جمعه في عيد الإعلام الأخير.

ورغم أن الموضوع سهل وواضح وهو جزء من تراثنا وعادتنا وتقاليدنا فإن عملية ضبطه وحجاباته سوف تحتاج إلى دراسات عميقة ولا بأسر في هذا المجال من استبداد بعض بيوت الخبرة لإجراء دراسات جدوى تخرج منها بعمل برنامج للكمبيوتر يمكن باستعماله حسابن الضريبة على كل نشاط.

وليسمح لي الدكتور الرزاز ببعض اقتراحات في هذا المجال لوضعها في برنامج الكمبيوتر:

- فبادرة فمن المفهوم أن هذا النوع من النشاط له عائد.
- ولذا يجب أن تكون الضريبة مناسبة للعائد.
- وبينما يكون هذا النشاط تروجاً فرعياً في بعض المواقع، فإنه في مواقع أخرى (رؤساء مجالس إدارة بعض دور النشر مثلما) يمثل النشاط الوحيد المبرر لوجودهم. وينبغي طبعاً أن يؤخذ ذلك في الحساب.
- يجب التفريع في المعاملة بين التملك الخفيف مثل "وقد نفتذت هذه العملية حساب التعليمات الرشيقة للسيد رئيس مجلس الإدارة" وبين التملك الواسع من عينة "أنت بابا وأنت ماما.. وأنت كل حاجة." - ينبغي التفريع في التعامل مع صفحات النعي في الأهرام بين النشاط التجاري البحث مثل "ينعي الأستاذ إبراهيم عبد المسيح الحازن بوكالة البلح السيدة جميانة تادرس زوجة المقدس تادرس مجنى، تاجر البخورة المشهور" وبين النشاط التمليقي البحث مثل الصفحات المتكررة في نعي "أبناء خالة روع زوجات السادة ب_CONTAINER_0"
الوزراء وأمراء الخليج.. إلغ". إذ يفرض على النوع الأول ضريبة تجارية عادية، أما النوع الآخر ففرض عليه ضريبة التملق.

- ينبغي الالتفات إلى فترات التحلل النشطة مثل تكوين اللجان أو تأليف الوزارات، وهي أنواع النشاط التي يطلق على المشتريين فيها اسم "عنده مشتاق"، وأحياناً منخفية تحت ستار عرض خبرة أو تنفهم لأفكار.

- يجب على برنامج الكمبيوتر أن يأخذ في الاعتبار ما يطلق عليه اسم لغة Body Language الجسد الذي تقول بصوته خافت ولكنه مسموع "أنا خدام السيادة".

- ينبغي وضع برنامج الكمبيوتر بحيث تتضاعف قيمة الضريبة عشر مرات لو وردت عبارة تحمل معنى "إن ما سأقوله ليس تملقاً، فإننا مشهور بقوله للحق ولكن لا أستطيع أن أمنع عن ذكر الحقيقة وهي... أنت بابا وأنت ماما... إلغ".

- وفي النهاية ينبغي أن نتذكر أن الكمبيوتر سيواجه مشكلة تتعلق بكتابنا ورجال أعلامنا الذين يذهبون إلى دول الخليج. فرغم أن الألعاب يتم دفعها في الخارج، فإن النشاط عادة يتم داخلها. وعلى الرغم من بعد قوانين ضريب لعمالين بالخارج لن تكون هناك صغرية في حل هذا الإشكال لما فيه الخير والمنفعة.

لعلنا بهذا تضرع عصافيرين بحجر واحد، إذ ننمي إيرادات الخزانة وننظم نشاطاً تجارياً بدأ يخرج عن أي منطق وكاد أن يصاب بشعار الدولة هذه الأيام، أي أن يصبح عشائياً.

أغسطس 1994م
إسحاق نيوتن
(1642 - 1727)

لا يرتبط الشرف والعزة والكرامة في القرون الحديثة بأزياء وصور المرأة، إنما ترتبط هذه الصفات بخدمة البشرية وإسعادها، ولم يخدم البشرية ويسعدها في هذه القرون قدر العلماء. العلماء الحقيقيون. وليمع بين أسماء هؤلاء العلماء اسم إسحاق نيوتن.

ولد إسحاق نيوتن عام 1642، ومات أبوه قبل مولده وتزوجت أمه من رجل من أثرياء القرية، تمكن بشرائه من توفير تعليم جيد لنبوتي. بعد انتهائه دراساته الأولى التحق نيوتن عام 1616 بكلية ترينتي بكامبريدج، وهي الكلية التي كانت تعد الشباب ليصبحوا من رجال الدين ومن موظفي الحكومة، كان من المفروض إذن، مثله كمثل كيلر، أن يعد نفسه ليصبح من رجال الدين ولكن نيوتن تحول إلى علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء.

وعلى عكس كيلر، فقد نال نيوتن العديد من مظهر التكريم والتشريف من الدولة، فانتخب في البرلمان عن دائرة كامبريدج ونال لقب سير وعين مديرًا لدار سك النقود ولمات دفن في مقابر العظام في وستمنستر.

كان نيوتن باحثًا فريدا وكان يقيم معظم حياته وحيدًا في غرفته بكلية ترينتي وقدم العديد من الدراسات في كافة ميادين العلم: وقدم دراسات الضوء والبصريات واخترع تلسكوب عاكس الضوء الأبيض يتكون من خليط من ألوان الطيف. قدم أيضاً دراسات مهمة...
في الرياضة أهمها عن التفاضل والتكامل. وحسب بدقة متناهية مسار الكواكب في مداراتها مضيفة بذلك إلى حسابات كبار التي وضعها أساس علم الفلك الحديث.

وإلى جانب كتاباته للجمعية الملكية التي تعد أول منازج لأوراق البحث العلمي الصحيح، كتب نيوتن كتابه الشهير الذي أدخله في تاريخ العلوم من "Principia Mathematica" أوسع الأبواب وهو "مبادئ الرياضيات" ولكن أعظم أعمال نيوتن على الإطلاق كانت دراسته في الميكانيكا وعن الجاذبية. وقد دق نيوتن المسار الأخير في نهوض نظريات أرسطو العلمية التي سيطرت لقرن عديدة على عقل البشرية والتي تبنتها الكنيسة فكانت سجناً للفكر الحر والعلم الحقيقي، والتي دق المسامير الأولى في نعشهما كورنثيوس وكيلر وجاليليو بدراساتهم التي أطلقت العلم من قمم أرسطو ماردا جباراً مكتسحاً ومقدماً أقرب الطرق للمعرفة الصحيحة.

كان من أهم "آراء" أرسطو في دراسته عن العلوم الطبيعية أن الأرض هي مركز الكون - وقد حطم كورنثيوس هذا الفرض - وأن الكواكب تدور في مدارات كاملاً الاستدامة - وقد حطم هذا الرأي كيلر وجاليليو. وتال هؤلاء الكثير على يد الكنيسة كان أفعّال ما ناله تلفيق تهمة السحر والشعوذة لوالدة كيلر، وكانت هذه التهم تستدعي الموت، وإجبار جاليليو على الاعتراف الكاذب بكذبه، ولم تعترف الكنيسة بخاطئها في هذه القضية إلا منذ ستينين.

كان أرسطو يعتقد أن الأشياء ثابتاً بطبيعتها، وأنها لا تتحرك إلا للعودة إلى مكانها الطبيعي: فالحجر مكانه الطبيعي هو الأرض، ولذا يسقط على الأرض وتتناسب (في زعمه الخاطيء) سرعشه مع وزنه. والنار والبخار
مكانهما الطبيعي في السماء ولا يرتفع الدخان للسماء.
وحطم نيوتن كل هذا: ووضع نظريته عن الجاذبية الأساسية المتبني لآلاف من
النظريات العلمية من حركة المد والجزر إلى حركة الكواكب إلى علوم الفضاء
في عصرنا الحالي إلى علوم الذرة. وكانت أهم إضافاته في هذا المجال هو أن
كل هذه الأشياء من الممكن دراستها رياضياً.
وهيذا يكون الشرف، وهكذا تكون العزة، وهكذا تكون الكرامة، بخدمة
وإسعاد الإنسانية، وليس بالافتراء الكاذب على العلم وعلى الدين، وليس
عبارات خاذبة مثل "هذه بضاعتنا ردت إلينا".

٩٩
الطاقة الإندماجية

يُقَدَّر العلماء أن مصادر الفحم والبترول، أو ما يطلق عليه اسم رقود الحفريات Fossil Fuel، سوف تنفد خلال ثلاثين عاما. ولذا فقد بدأت دول العالم المتحضر منذ سنتين في البحث عن مصادر للطاقة المتجددة، ودرست لهذا الغرض الطاقة المستخرجة من الرياح، ومن الماء والجرذ والأمواج، ومن الطاقة الشمسية، ومن اختلاف درجات الحرارة بين السطح والأعماق في البحيرات الساكنة، والطاقة النووية الإنشطارية.

وقد استغلت هذه المصادر بدرجات مختلفة، وإن كان أهمها هو الطاقة النووية الإنشطارية، ويجري توليدها هذه الطاقة بتنشيط انشطار عنصر اليورانيوم بدرجة تتحكم فيها حواجز من الجرافيت ثم استخدام الحرارة الناتجة من هذه العملية في توليد البخار من الماء، ويعمل ضغط البخار بعد ذلك في تحريك آلات لتوليد الكهرباء.

وعلى الرغم من النجاح في توليد الطاقة بهذه العملية، ومن انتشار عشرات

١٠٠
من المحطات تعمل بنجاح في جميع أنحاء العالم، فإن توليد هذه الطاقة
الانتشارية يعتمد على توافر ذرات عناصر ذات وزن كبير مثل اليورانيوم،
الذي مهما كانت مصادره فهي في النهاية محدودة.
وعند منتصف القرن بدأ علماء العالم المتحضر في دراسة إمكان توليد
الطاقة من اندماج الذرات بدلاً من اشتعالها، وهي نفس العملية التي تولد
بها الطاقة في الشمس ويعتمد توليد هذه الطاقة على اندماج ذرتين من عنصر
الديتريوم واستعمال ما ينتج من حرارة خلال هذا الاندماج.
وتختلف ذرة الديتريوم عن ذرة الإيدروجين في وجود جزء نووي (نيوترون)
داخل نواة الذرة. ووجود نيوترون داخل ذرة ما لا يغير من خواصها الكيميائية
إذا يغير فقط في وزنها الذري. وهي ظاهرة يعرفها العلماء في ميادين
الكيمياء والفيزياء ويتتبع عنها وجود ذرات متطابقة في خواصها الكيميائية
ومختلفة في وزنها الذري كالإيدروجين والديتريوم. وتسمى العناصر في هذه
الحالة "النيوترونات Isotopes".

وباتحاد الديتريوم بالأكسجين ينتج "الماء الفقيل" وهو مماثل تمامًا للماء
المادي. بل إنه يشكل نسبة معينة من الماء المنتشر في الطبيعة، وعلى ذلك
فإن عنصر الديتريوم اللازم لتوحيد الطاقة الاندماجية متواضف بكميات لا
نهائية في مياه المحيطات.

وإذا ضربه الذرات في ذرات أكبر، يحدث بكمات مهولة في الشمس وينتج
عن الطاقة الشمسية، ويغلب على الظن أن كل العناصر التي تعرفها على
سطح الأرض وفي صخور القمر (حوالي 91) قد نتج عن اندماج ذرات
الإيدروجين أو الديتريوم وشقيقهما الثالث التريتيوم الذي تحتوي نواتها

111
على نيوترون.

وقدر العلماء أنه يرفع درجة حرارة ذرات الديتريوم وإسراع تدافعها بشدة في ممر واحد في خليط من الذرات والأيونات والبروتونات وال الإلكترونات (يطلق عليه اسم بلازم Ploasma)، فإنه من الممكن أن تنمية الذرات وينتج عنها ذرات أكبر وكيمياء ضخمة من الطاقة الحرارية. ولكن قبل الحصول على هذه الطاقة كان لابد من التغلب على بعض العقبات:

1. كانت أولى هذه العقبات أنه لابد لتوليد هذه الطاقة من وجود "أنبوية" طولها كيلو مترات تتسارع فيها الجزيات. وتغلب العلماء على هذه العقبة باستعمال "أنبوية" دائرية ضخمة مثل الإطار الداخلي لعجلة السيارة تتسارع فيها الجزيات دائرة إلى ما لا نهاية من الطول.

ونتجت عن هذه العملية عقبة ثانية: إذا أن البلازم في تسارعها الداخلي تحدث تبادل الأنبوبية المستضد، مما يؤدي إلى فقدان الطاقة. وتغلب علماء الطبيعة على هذه العقبة بوضع الأنبوبية الدائرية في مجالات مغناطيسية كهربية تدفع البلازم بعيدًا عن جدران الأنبوب.

وجريت الأنبوبية التي تتكفل الملايين بنجاح في مراكز عديدة من العالم المتحضر، وإن كانت تحتاج إلى خطوات كبيرة لتحويلها من عالم التجربة إلى عالم الإنتاج الفعلي للطاقة.

وقد صاحب التقدم في مبادئ توليد الطاقة الاندماجية قصص قد يكون لها مغزى:

ففي منتصف الستينيات سمع العلماء في الغرب أن الروس (الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت) قد أعلنا حسابات زعموا فيها ما يدل على تقدم
خضير في مجالات الطاقة الإنضاجية. ولم يصدق علماء الغرب هذه الأرقام وأرسلوا وثائق من العلماء الإنجليز عام 1968 لدراسة تجارب إنتاج الطاقة الإنضاجية في روسيا. واكتشف الوفد أن ما أذاعه الروس هو أقل من الحقيقة وعادوا ومعهم بعض العلماء الغربيين لرفع كفاءة أداء محطات تجارب الطاقة الإنضاجية في الغرب.

ومن الطريقة أيضًا أن عالمين من الغرب زعمًا في أوائل التسعينيات أنهما قد نجحا في توليد الطاقة الإنضاجية بطريقة سهلة جداً داخل معمل صغير وقامت بقيادة العالمين ولم تحقق الدراسات والتجارب والمؤتمرات. وثبت بعدها وجود خطأ في الحسابات وأدان النجاح في توليد الطاقة الإنضاجية كان مجرد خيال.

ومازالت التجارب تجري في الغرب في محطات عديدة، ومازالت هناك عقبات، ومازالت الكفاءة أقل مما يجب والمكلفة أكثر مما يجب، ولكنها كلها عقبات في طريقها إلى الحل.

وهكذا يعمل العلماء في العالم المتحضر لسعادة البشرية ورخائها - يسبقون المشكلات بتقديم الحلول المناسبة. ولن يتأخر طبعاً علماءنا المقربون على العلم وعلى الدين وسوف يكتشفون أن طريق توليد الطاقة قد جاءت في الكتب السماوية وسوف تعقد المؤتمرات لدراسة جادة قيمة تحدد لنا إذا كانت هذه الطرق الجديدة حلال أم حرام.

أغسطس 1994
التخطيط المنتظم

يعرف الأطباء نوعين من عدم الانتظام في دقات القلب: عدم الانتظام منتظم Regular Irregularity والانتظام غير المنتظم Irregularity.

ولما كان ما تعيشه اليوم يفرض على كل مهتم بشئون بلده وأولاده أن يتأمل ويفكر ليستخرج الأسباب والعلل وليصل إلى القواعد والقوانين والتعليمات، فإنه - بعد التأمل العميق - قد وصلت إلى القاعدة الأساسية التي تسير عليها سياسة حكومتنا السنية، وهي "التخطيط المنتظم".

أما عن التخطيط فهو واضح وضوح الشمس.

انظر إلى تشريعات الانتخابات: فهي يوما بالقائمة المطلقة، وهي يوما بالقائمة النسبية وهي يوما بالدوائر الفردية ثم يوما بخليط من هذا وذاك.
ثم انظر إلى ميدان التعليم: ففي عصر سابق أقنعنا حكومتنا بأنه من الواجب اتخاذ أوعز الدراسة ككي نتفادي خطر أدمغة الطلبة بالمعلومات، وتسبب هذا الاجراء في ارتباك شديد في العملية التعليمية، لتحل هذه الخطة العبقية، إيقاف التعليم. ثم أقنعنا حكومتنا بأن التعليم الجامعي مضيعة للوقت والمال وأن نسبة الجامعيين عندما تفوق نسبتهم في البلدان المتقدمة (وهي أكاذبة جريئة) وأن في التعليم الفني الذي عقدنا له الاتفاقات مع ألمانيا خلاصنا. ثم جاء وزير التعليم الحالي فانقلب الأمور. فإذا التعليم الجامعي قاصر كما ونوعا، وإذا التعليم الفني في غياب تنمية يؤدي إلى بطاله ويؤدي إلى إرهاب، وإذا اختزال سنة من سنين الدراسة خطأ فالذى ينبغي التخلص منه.

ثم انظر في نفس الميدان إلى التخطيط الذي يتكرر مرة كل أربع سنوات بين تطبيق نظام الفترات، وإلغائه وبين تعيين العميد أو انتخابه، وكل هذا علماً على فشل الخطط المختلفة للتخلص من أمية أو حتى خفض نسبة أوراق مستوى الدارسين الذين حصلوا على الإعدادية، ولا يستطيعون "فك الخط" هل هناك عجب إذ إن تصنفنا تقارير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية نتيجة لهذا التخطيط في قاع المتخلفين? وهل هناك عجب أن تتفوق علينا في هذا المجال. كل الدول العربية ما عدا السودان واليمن والصومال وأن تمتاز عنا كثير من الدول الأفريقية مثل ناميبيا وليسوا؟

وانظر إلى التخطيط في ميادين الثقافة والإعلام، فبينما تناو دولة بالتنوير وبالقراءة، والكتابة تنشر أهم أجهزة الإعلام في الدولة الخرافات والدجل بالحديث عن "سبع عشرات امرأة صباحا ومثلهن مساء."
بالنصيحة لعلاج الحسد "بالاغتسال في مياه وضوء الحاسب" وملت الاستعانة في علاج الأمراض المختلفة باستشارة العطارين. ولماذا التصيح إذا كانت مديرة البرامج الثقافية في إحدى مناطق الإعلام الحكومية تبدو بجواها أتته المذيعات في ذكاء أثيرت انشطة، وهل تزيد المزيد؟ لقد أقنعنا التليفزيون منذ سنوات بأنه يجب على المواطنين المصري أن يذهب إلى فراشه مبكراً ولذا فقد قرر الانتهاء من برنامج قبل منتصف الليل، وسرنا لهذا القرار من التليفزيون أسوأ سرور، فروم الظلم عبادة، ولكن لم تدم سعادتنا طويلاً.

فقد عاد الظلم إلى البث حتى الرابعة صباحاً يقرر من نفس قيادته السابقة.

ثم انظر إلى الحديث المستمر عن الطفولة: "عصام الطفل" و"عقد الطفل" و"أسبوع الطفل" و"جمعيات الطفل" و"شارع الطفل". إلى آخر هذه الأحداث والاحتفالات التي يظهر فيها زراء الإعلام والتعليم والمحافظين في الوقت الذي يسقط فيه الأطفال في البالوعات وتنفع فيه أمعاء الأطفال الذين يعملون في أسوأ ظروف العمل وفي غياب تنفيذ أبسط التشريعات الإنسانية التي تحميهم، وتصاب فيه الأطفال بنسبة كبيرة من الأمراض لعل أوضحها فقر الدم الناتج عن سوء التغذية الناتج عن الفقر المدقع الذي أصبح مستشريا في مصر والذي يؤدي إلى التخلف العقلي.

***

ولا ينبغي أن يغرك هذا التخطيط، فداخل هذه الفرضية هناك خط واضح لا حيلة عليه ولا انحراف:

- فأسماع السلم ترتفع وسيزداد ارتفاعها يوماً بعد يوم والقوة
الشرائية لدخل الفقراء والطبقة المتوسطة تضمل وستضحل شهر بعد شهر.
- التعليم والصحة يقل وسيقل نسبة الصرف عليها ميزانية بعد ميزانية.
- والدجل والجهل متزداد مساهمتهم في البرامج الإعلامية والتعليم على الأحزاب وقتل الديمقراطية والمن على الممارسة الشرعية بعشرين دقيقة كل انتخابات استمر وسيستمر برنامجا بعد برنامجا.
- وبيع القطاع العام وسحق الطبقة المتوسطة وازدياد الفقراء الفاحش للطبقات الطفيلية والقيادة وظهور أعدد أكبر من المرسيدي والجيش والبويرة سيستمر إلى أن يقضي الله أمرا كان مكتوبا.
وتبود الأمور وكأنما هناك قوة مغناطيسية هائلة، نقب أسود، تتجذب إليه القرار والسياسات، قوة تحدد المصارف والانجازات، قوة تخلق طبقة طفيلية تنتشر وتستهلل من الغرب وتوقف وتعطل قوة الإنتاج الدولي. هل هي البنك الدولي؟ هل هي صندوق النقد؟ هل هي سلطات توجه البنك الدولة وصندوق النقد؟
الله أعلم
العلم والفكر واللغة

ناقش العديد من المفكرين والأساتذة الجامعيين الأوجه المختلفة لقضية تعريب تدريس العلوم، وقد كانت كتاباتهم في هذا المجال واضحة وحاسمة.

فالحقيقة - وقد مارس كاتب هذه السطور تدريس العلوم الطبية لما يؤدي على أربعين عامًا - أن التدريس بلغة أجنبية يتسبب في خلق حائط لغوي بين المدرس والطالب، فاللغة الأجنبية تظل دائماً لغة ثانية، ولن تبلغ أبداً في عمق تعبيرها واستقبالها اللغة الأم التي تعلمتها الإنسان في طفولته، إلا في القلة النادرة.

والحقيقة أيضاً أن مسألة المراجع المفترى عليها تمثل حجة لا يؤخذ بها في هذه القضية، فبدابة فإن قلة نادرة من الجامعيين هي التي ترجع للمراجع الأجنبية وأن الأغلبية العظمى ترجع لمذكرات تكثيفها الأساتذة في مصر.

١٠٨
وعلاوة على ذلك فإن قضية المراجع يمكن التغلب عليها باستعراض إعادة لغة أجنبية - الإنجليزية أوفرنسية أو ألمانية إلخ ودأعى للتصحح بمصدر واحد للمراجع - قبل التسجيل للدرجات العليا في العلوم المختلفة.

ولكن يبقى، حتى بعد هذا الجسم الواضح للقضية، وجه آخر لم ينل حظه من النقاش، وهو العلاقة بين اللغة والفكر، ففي واقع الأمر فإن هذه العلاقة أكثر خطورة في أثرها عن أي من الأبعاد السابق ذكرها. ولذلك فإن تعريب تدريس العلوم أهم من أن نناقش من ناحية تأثيره على الاستيعاب، وأخطر من أن يناقش من مناطق شروطانية قومية، فأما الموضوع يتعلق بأسلوب تفكيرنا وسرعة انتقظاننا إلى رحاب القرن الواحد والعشرين.

لقد أثبت علماء اللغة أن "الفكر" هو "اللغة"، فالكلمات - لبنت اللغة - هي لبنت الفكر. ولولا كلمات "سرعية" و"ضجاعة" و"غيرة" و"بخل"، ولولا الكلمات المبردغة عن التجريد الرياضي، لولا هذا كله، لما وجدت "الفكرة" التي تعتبر عنها هذه الكلمات، بل إن "التفكير" كلام محبط، وأحياناً كلام نعلم، يزول هذا الإحباط ويبدو المستغرق في التفكير وهو يحرك شفته ولسانه وكأنه يتكلم.

وعلاوة على ذلك فإن اللغة المكتوبة تمثل تراكماً مهماً للمعلومات والفكر. ولعله من الممكن أن نعتبر أن هذا التراكم يمثل مرحلة في التطور السريع للجنس البشري بعد مراحل التراكم البيولوجي البطيء على جزيئات D.N.A، ولقد مكن هذا التراكم اللغوي للفكر في عصرنا الحالي أن يتناول كتاباً من أوراق المكتبة ليضيف إلى أفكاره فكر أرسطو أو ماركس أو شكسبير.
وليست وظيفة اللغة، كما يظن البعض، هي "الاتصال" بل إن وظيفتها في
هذا المجال هي "الفكر". أي نقل الفكر من عقل إلى آخر، فالاتصال في حد
ذاته له وسائل خاصة غير اللغة - من تعبيرات بعضات الوجه، إلى إشارات
باليد التي تحررت بوقف الإنسان على قدميه، إلى حركات الرقبة والجسد،
وهي كلها خواص لا ترتبط بالإنسان فقط، فالقردة والنحل وأغلب أفراد المملكة
الحيوانية، بل والنباتية أيضاً، تقوم بدرجات مختلفة من الاتصال وكثير من
وسائل الاتصال في الإنسان مروية وموجودة في القبائل البدائية الثانية عن
الحضارة بنفس المعاني التي تحملها في أروق الشعوب المعاصرة.
وعلاوة على ذلك كله، فقد لا تلاحظ العلماء العلاقة الوثيقة بين مراكز العمل
وال"الكلام" وال"الفكر" في المخ. أنظر إلى شخص يلمع إبرة أو يستعد لضربة
الرسائل في التنس وستراه يحرك لسانه يمنة ويسرة وداخلا وخارجا كأنه يبحث
عن "فكرة": كلمة تساعد فيما يعمل.
هناك إذن ترابط بين الفكر والكلام، ولكن، ما علاقة هذا بتدريب تدريس
العلوم؟
تتطور لغات البشر عامة بعد عام نتيجة أو سببا لتطور الفكر ومن يتابع
الصحف الإنجليزية أو الأدب الفرنسي سوف يلاحظ للنمو التطور المستمر
للغات وسقاط بعض الكلمات وظهور كلمات أخرى. ويكفي كمثال ما أضافته
"علوم" "المعلومات" من مفردات اللغة مثل BIT, BITE, SOFTWARE,OUNCE
إلخ وما أضافته علوم الطبيعة والفلسفة مثل LOOP, HARDWARE
إلى آخر هذه القائمة التي أضافت الآلاف من الكلمات إلى القواميس الحديثة. وبحسب انتقال هذه
110
الكلمات من ميادين البحث العلمي إلى الحياة العامة تطور في الفكر عامةً سواء أكان اقتصادياً أو اجتماعياً أو حتى في الآداب والفنون. وبينما تحتوي لغتنا الجميلة، الغنية بالألفاظ والمعاني الإنسانية العالية، على العديد من الكلمات لوصف الأسد، وأخرى لوصف السيف، بل وعلى كلمات تصف الناقة بكمية اللبن الذي تجود به، فإنها بكل أسف تفتقر إلى الكلمات التي تعبر عن بعض المعاني العلمية الحديثة. فاللغة الإنجليزية مثلاً تحتوي على العديد من الكلمات التي استمدتها من علوم الإحصاء والتي تستعمل في ميادين أخرى مثل الطب المعمل. وهذه الكلمات PRECISION, ACCURACY, SENSITIVITY, SPECIFICITY, BIAS, RELIABILITY, وكل هذه الكلمات ترتبط بظلال متنوعة بكلمة REPEATABILITY وحيدة في اللغة العربية وهي "الدقة" وغني عن البيان أن اختلاف المعاني بين هذه الكلمات يعبر عن مفاهيم تحتاج إليها البشر في تعاملهم في العصور الحديثة وفي الحوار وتفاعل الأفكار حول المواضيع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة.

لابد إذن لتطوير المفاهيم أن تتطور اللغة، ولقد تطورت لغتنا بالفعل خلال القرن العشرين، وأضيفت لها العديد من "الكلمات: الأفكار" ولكننا بفضلنا الحديث في تدريس العلوم الطبيعية والطب والهندسة باللغة العربية، قد انتهمنا في أهم معركة لتطوير لغتنا وفكرنا إلى متطلبات القرن الواحد والعشرين، دون أن ندخل هذه المعركة بهذه أجهذنا تقدمنا إلى عصر العلم والصناعة. فلو أنت فرضنا على أنفسنا تدريس هذه العلوم باللغة العربية
لاطغنا إلى وضع المصطلحات التي تناسب هذه الأفكار، مثلاً اضطرنا لقبول كلمات مثل "الغلظة"، ولاتسابت هذه المصطلحات إلى مثقفيتنا وكتابنا ومنهم إلى شعبنا حاملة معها محتوياتها من المعاني والفكر.

وهكذا كنا، عندما درسنا هذه العلوم باللغة الإنجليزية، تسببت فيما يطلق عليه الأطباء تعبير ضمور غيب الاستعمال، كأهل الصين القديم الذين اعتادوا على وضع أقدام فتياتهم في أحذية من الحديد لمنع نموها، بينما وقفت نمو لغتنا وفكرنا ونتج عن ذلك إصابة قصيرة مفكرة بشيئ وفرينو فكرية ثلاثية: فهم يتكلمون العامية، ويكتبون الفصحى، ويفكرون بالإنجليزية، وهي مسألة فكرية تحتاج إلى علاج عاجل.

وليس هناك علاج أقوى من أن نتخذه قرارا سريعا يضمن أمام الواقع بتعريب تدريس العلوم وحتى لو تسبب هذا في انخفاض مستوى التدريس - ولن يحدث - فهذا ثم تأفة مقابل لحاقنا بالفكر والعقل المعاصر. ويمكن تفادي هذا الضرر تماما باشتراع إجادة اللغة الأجنبية على طلبة الدراسات العليا.

س改动مبر 1996
الحلال والحرام
الخير والشر

لثقة نظرى صديق عزيز إلى ظاهرة مهمة استشرت في مجتمعنا: فقد تركنا
"الخير والشر" واستبدلنا بهما "الحلال والحرام". والفرق شاسع بين المتروك
والمقبول، فالخير والشر فطرة يعرفها ويتفق عليها أغلب البشر السوي.
فالذناب والقتل والزنا والسرقة ومرض الأبناء شر، والحب والإخلاص والمودة
والمصدق والأمانة خير. أما الخلاق والحرام فهى مقاييس قيمية يستخرجها
بشر يحسن أو سوء نية من مرجعية خاصة بهم، منها الكتب الدينية، والكتب
الدينية - كما وصفها على ين أبي طالب رضى الله عنه "حمالة أوجه".

***

سألت شابا صعديا طبيبا عن رأيه في قتل السواح، فقال "حلال يا بيه".
سألته منهشدا "ليه؟" فقال "القرش الحرام ما منوش فايدة". سألته "إزاي؟"
قال مغلقاً باب المناقشة "هذه كلام رينا يا بيه".

***

سألت الكاتبة الإسلامية والصديقة العزيزة، ورغم محاولاتها الدائمة لهدايتي
"أيهما أقرب إلى الخير، الحاجة كاملة التي حجت سبع مرات صاحبة عمار
مصر الجديدة المشهورة والتي تقسم دائماً أن فلوسها حال، أم السيدة أوسين
صاحبحة المسلسل المعروف"؟ وترددت الكاتبة ذات القلب الأنصع ببضاً من
الثلج ثم أجبت "ولكن أوسين تشوب الخمر، والخمر حرام".

جلست وسط مجموعة من زملاء الهيئة أساتذة الجامعة، قمم عقول مصر.
وقصوا علينا قصة رجل أعمال مشهور متزوج من سيدة أُنجبت له العديد من
الأبناء، فلما بلغ سن الستين رأى زوجة أحد الأنان له هو سيدة أصغر منه
بثلاثين عاماً ولها من زوجها أبناء، أعجب بها، ففتح الموظف مبلغًا كبيرًا من
المال وطلب منه أن يطلق زوجته وتزوجها هو، وهي على العموم قصة تنكر
كثيرًا، ولكن ما أدهشني هو رؤية عيون الأنان الأساتذة وهي تلمع بحماس
وإجاب، وهم يتناولون حكاية مقاطع من هذه الجريمة، باعتبار أنها تدل في
رأيهم على تدين شعبنا وتدميره بين الخلل والحرام، فلما استجعت شجاعتي
وقلت "ولكن هذا شر"، قالت إحدى الطبيبات بثقافية فردية "عفام يا دكتور
سمير"، ولكنها اكتشفت أنني وقعت معها في عش دبادير.

***

وهيكذا، وبدونية متغيرة حسب الأحوال من "الحلال والحرام" وفي غياب
(أو يتبين من؟) أجهزة الدولة والإعلام والثقافة، فرضت على شعبنا الأمي،
وعلى أنصاف المتعلمين، مجموعة من القيم الغريبة على فطرته: فالجلباب
الفصيح حلال، والتلفزيون حرام، وقشت الصائغ والسائح حلال، ودخول المرحاض بالقدم اليمنى حرام، والنقاب حلال والسفور حرام، والكتب التقيه حلال، وتحية المخالفين في الدين حرام، وقراءة كتاب العلم حرام، وتحويل المرأة إلى شيء يمارس مع الرجل الجنس بدون حب من جانبه وبدون رغبة من جانبيّها حلال، وليس الفتاة للملابس الرياضية حرام، وتحية علم الدولة حرام، والاستماع إلى الموسيقى حرام، وليس الرجال للشوارع فوق الركيزة حرام، والتعامل مع البنوك حرام، والتعامل مع شركات الاستثمار التي تضع نقودها في جزر اليهود حلال...

يبدو أنّ دخلت حكومتنا الإسبانية في هذا المنعطف الخطير فأصدرت قرارًا بشأن تحديد الملكية الزراعية والإيجارات "حرام" وأصدر وزير الإسكان بيانًا بأنه لا ينام الليل لأنّ تقنين إيجار الشقق حرام يرتبط به كل يوم، وقديماً استصدر الرئيس المؤمن فتوى بأنّ الصلح مع إسرائيل حلال.

***

ينقسم الدم البشري إلى أربع طبقات: أقدمها وأعمقها تسمى جذع الدم وهو موجودة في جميع الفقاريات، وهي التي تنظم الوظائف الفسيولوجية الأساسية للجسم: مثل التنفس، ونبضات القلب، وحركات الأمعاء... إلخ.

ووفقًا لظاهرة تسمى R.COMPLEX، وتمييز كذلك لوجودها في الزواحف. وهكذا، ففي داخل كل منا تمساح أو ثعبان، وهي المستقلة عن الدفاع والهجوم والسبيطة على المكان وتنفيذ TERRITORIALITY المكانة الاجتماعية بالعنف.

115
تمثل ثلاثي المخ، وفيها الذاكرة والقياس والنقد واللغة والعلم SAPIENS إلخ.

الخير إذن نفزة في الطبقة الثالثة للمخ، مزروعة في كل إنسان سوي، تغيب أحيانا في المرادي السيكوبالتين وتُغيّب، بوضع شدة على الياء، بفعل الأهداف الآثيمة الأدنية للقشرة المخية بما يحصل عليه الإنسان من تربية وتعليم وثقافي.

***

وترك المرجعية القيمكة في أيدي الدجالين والنصابين والجهلة ذوى الأطماع السياسية الخبيثة خطر ما بعد الخطر، وليس لنا من مخرج من هذا المأزق إلا المحاربة القوية الذكية لهذا الانحدار القيمكي، وعلى وزاراة الإعلام والتربية والثقافة المسؤولة الكبرى في هذا المجال. وعلينا أن نتذكر ونحن نفعل ذلك الحديث الشريف "أنتم أدرى بشكون دنياكم" الذي يرد على كل هذا الاقتراء.

إذا لم نفعل ذلك فسيقذنا التاريخ في سلة مهملاته.

نوفمبر 1994
الغضب

ينبغي علينا ألا تعتبر محاولة إغتيلال نجيب محفوظ مجرد حادث، فالحادث هو تحد لقوانين الاحتمالات يحدث بصورة غير متوقعة، أما ما حدث لنجيب محفوظ فهو نتاج متوقع لمسببات معلومة. ولقد حدث مثله من قبل وسيستمر حدوث مثله في المستقبل ما دامت الأمور مستمرة على ما هي عليه. ويجب علينا ألا نستكين إلى هدوء وسكونة الكاتب الكبير، فصوفه هذا يفرض عليه سنته ومركزه، بل علينا أن نغضب وأن نثور على هذه المهانة التي يتعرض لها الخير والنور والتقدم في وطننا، فالاعتداء على نجيب محفوظ يمثل أحد البيماران في تيار سرطاني خطر ينمو ويتهدد جذوره يوماً بعد يوم وبين القيادة الفكرية المستنيرة لهذا الشعب.

وكل ما يحيط بالحادث يدل على مدى انحناط هذا التيار الأسود. ألا يكفي ما كرره الجاهل المجرم أمام عدسات التلفزيون بأن نجيب محفوظ فاسق؟ ألا يكفي ما قاله أمام الصحافة بأنه لو خرج مما هو فيه فسحراً مرة أخرى ألغاهوا؟

وتصور أنه سوف يمكن إيقاف مثل هذه العمليات بتشديد الإجراءات الأمنية أو بمسرحية أو مسلسل عن الإرهاب هو تصور سافر. فهنا نحن نعرف بأن هذا التبت الاسم تمت جذوره عميقة في الأرض ولا وسيلة للتخلص مننه إلا بالجراحة. هذه الجراح ليعود للسطح نضارته وصحة.
ولسوف يلاحظ أي مراقب مرشح بشئون وطن أنه هذا النتيجة الذي يصل عليه البعض افتراضًا اسم "الصورة الدينية" يتمثل في أربعة طرائق: بعض مئات من الفتيان الصغير (5-25 سنة) المرتديين لفقرهم وتعاستهم بالم المال والزواج والموضوعين كنماً للجهلهم وأميتهم بالشهادة والجناة.

قادت هذه الفئة من ضعفهم مدارس المخابرات الأمريكية لخدمة أهداف الولايات المتحدة الأمريكية في أفغانستان وغيرها. ويعمل هؤلاء في جبهة سرية منشدها جبهة علنية من المتآثرين السياسيين وأصحاب شركات الاستثمار والمتجار الذين نهيوا أموال مصر وصدروا إلى مواطن الفساد في جزر البهاما وغيرها.

آلاف ممن يدعون أنهم من رجال الدين. وفتخامهم وخطبهم مليئة بالأكاذيب بما هو ضد فطرة الدين والأخلاق.

ملائمين - نعم ملائيم - من الأمريكيين أو أبنائ المتآثرين الذين بدأ مسارهم في هذا النتيجة الأسود من منابع الإعلام والتعليم الحكومية. ويتكون من هذه المجموعة الاحتياطي الضخم الذي لا يتفادى عنصر المجموعة الأولى والبيئة المناسبة لاختفاء وإيواء هذه العناصر.

وقد ارتقب هذا النتيجة الأسود الشيطاني أقطع الجرائم في تاريخ مصر، فقد آخر مسيرتها السياسية فشلل القيميات الشعبية والفكرية بمعارك مستمرة، وأوشك على تحطم قيمها الاجتماعية باستبداد طقوس ورامس شكلية جاهلية بالأخلاقات والقيم الفطرية الطيبة لشعبنا.

ولد هذا النتيجة الاستغلال على يد هيئة قناص السرية (السوري في ذلك الوقت) للسيطرة على العاملين الوطنيين في الهيئة، ونما بعد ذلك هذا الجني الخطر.
بمساعدة من السراي الملكية ومن إنجلترا ثم الولايات المتحدة وكانت مواقف السياسة المستمرة تبرز ما ينتقد عليه: فحارب حزب الوحدن - طليعة الحركة الوطنية في ذلك الوقت - وهتف للملك وأعلن له الولاء، وأيد طاغية هذه الفترة إسماعيل صدقى الذي كانت مهمته القضاء على الحركة الوطنية، وأقتي زعماً بأنه صادق كالنبي إسماعيل.

وكان هذا التيار بكافة فصائله وجماعاته ومطاويه عوناً مستمراً للمستعمر وكانوا بين صفوف شباب الجامعة الفتية الوحيدة التي امتبعثت عن تأبيد اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، (قيادة الحركة الوطنية في ذلك الوقت). وعندما جاء السادات إلى الحكم أطلقهم كالكلاب المصورة ضد المجموعات الوطنية مهماً الطريق للصلح مع إسرائيل، فصدروا فتاواهم كالمادة مقارنة بين هذا الصلح وصلح الحدبية. وقاموا في أفغانستان بدور وضيع في خدمة المخابرات الأمريكية وتجار المخدرات انتهى بهذا البلد إلى ما هو عليه الآن.

أما اجتماعياً فقد استبدلوا الشرير الطويل والطيبين القصير والقتل والضرب وطريقة دخول المراحين، والعبس والكراهية، بقيمتنا الحقيقية الأصيلة كالصدق والخمر والحب والإنسانية، واعترافاً بأخواننا وأمهاتنا وننا كننا عن اللحم الجنسي وحباروا كل اتجاه لإنسام المرأة.

ويعد أن كان التحسين في أيامنا همماً يدور في هذه، بين الإنسان رهبة، وسلوكاً يشع بضوء الورد والحب، أصبح على أيديهم ضوضاء ودجالاً وجننا وعفواناً وجمالاً وحديثاً مفتوحاً من ثعبان أقعت.

وتحول الأقليات بهذه "الصحوة" إلى طائفة مهيئة، لا ولاء لشبابها للوطن ولا أمل لهم في المستقبل إلا بالهجرة إلى الحلم الكاذب، إلى المعسكر.
الآخر.. إلى الولايات المتحدة وكندا.

لقد استشرى هذا التيار وتغلغل واخترق صفوف شبابنا وثقافتنا بل وعلمانا في الجامعات ومراكز البحوث مسنوداً في ذلك بفكر مستورد من باكستان C.I.A. وتمويل من دول البترول، وتدريب من السي آي إيه.

وكمأ يعلم كل دار للتاريخ فإن مثل هذه النكسة الفكرية لا تحدث إلا في أوقات الردة المتخلفة ولا ينتج عنها إلا ازدياد الفقر والتخلف والتعاسة ويكفي ما صاحبهنا عندها هنا من انحدار في الأخلاق والقيم، فقد ساعد هذا التيار المتعمس بالأشكالات كبار النصابين من تجار البضائع المغشوشة والمأكولات الفاسدة وشركات الاستثمار المتمسحة بالذين على الاتصال على شكليات وممارسات تنققهم من مسئولية الواجب والضمير.

هذه إذن هي البلوي الكبير. هذا إذن هو الخطر الأعظم.. وقد أن لنا أن نستيقظ ونتخلص منهم لتفرغ لمشاكل النمو والتقدم ونسير في ركب الحضارة لتدخل القرن الواحد والعشرين بشعب متعلم سليم سعيد.

وعصفوا للنبرة الحادة. فلقد بلغت من السن ما لا يسمح لي بأن أكرمه ما أعتقد.. ولقد بلغت يى حادثة محاولةقتل أديب عالمى مسالم بلغ الثالثة والثمانين من عمره على يد جاهل يزعم أن لديه جذوراً فكرية وأصولاً دينية تبره فعله، درجة كبيرة من الفضب.

نوفمبر 1994

١٢٠
贝ين العلم والتكنولوجيا

كتشوفة هي افتراضات أنصار الدجل والجهل عن قادة السياسة والفكر على
العلم. فمنها مثلاً إخلاق عداء بين العلم والدين، ومنها القول بأن العلم ينتج
عندما شرور مزعومة، متجاهلين ما وقعت فيه شروعيهم، بفضل الدجل والشعوذة.
من ثماسة ونقشر ومرض. ومنها الخلاف بين العلم والدين، بالرغم بإمكان
استخراج الحقائق العلمية من الكتب المقدسة، وإثبات النصوص الدينية
بالعلم، مع أن لعلم طريقه غير طريق الدين، ولكن منهما دوره الخاص، فالمعلم
مكانه في خدمة الأهداف العليا للأديان – كل الأديان – وهي سعادة ورفاهية
وكراة البشر – كل البشر. وعلم طريقه الشك والدين طريقه الإيمان.

كثيراً إذن هي طرب الافتراء على العلم، ولكن أكبرهم خبيزاً وخفيفاً، هي
استبدال التكنولوجيا بالعلم والزعم بأننا نناصر "العلم" ونحن حقيقة نستورد
التكنولوجيا. ولعلنا لازمنا نذكر ما أطلقنا عليه اسم "نوادي العلم" للشباب
والتي كانت في حقيقة نواذيب لعب التكنولوجيا والتي كان يعد الشاب إلى
 منزله بعد ممارسة اللعب بالتكنولوجيا لقراءة كتب الشباب الأقرع والانضمام
 إلى الحركات الإرهابية.

وعلاقة العلم بالتكنولوجيا علاقة وثيقة، فازدهار العلوم الأساسية تنتج منها
طوفان من التكنولوجيا، وقد اكتشفت دراسات فاراداي (M. Faraday
1791-1867) وما تنتج عنها من مئات الألف من الأجهزة

121
التي تعتمد على الكهرباء أو أثر دراسات الكم وأشياء المواصلات على عشرات الألواف من الآلات الإلكترونية. ولكن الزعم بأن التكنولوجيا هي العلم، وإطلاق أسماها همية عليها مثل "العلم التطبيقي" أو "العلم النافع" زعم كاذب وخطر.

وهو زعم كاذب، كما سريحت فيما بعد بالتفصيل، لأن التكنولوجيا قد سبنت العلم بلايين السنين. فحيوانات الشمبانزي تستعمل تكنولوجيا معينة (العصاب) في الصراع، وفي استخراج العسل والخرات من الشقوق لتأكلها، دون أن تعرف وتدرس قوانين الروافض. وما مارسه قدماء المصريين من تخطيط وبناء للمعابد والمساليع الرائعة، هي مارسة للتكنولوجيا في أعلى مظهرها ولكنها ليست "علماً" بما يتطلبه العلم من منهج صلب له أساليب وضروريات.

وهو استنتاج خاطئ لأن التكنولوجيا الحديثة مبنية في أغلب صورها على العلم، واستيرادها في غياب العلم سفاهة وإسراف ومظهرية لا مكان لها في البلاد النامية، ويكفي أن نتذكر أنه بينما تصرخ الجهات المختصة في أمريكا عن Word Processor احتجاجاً على استعمال الكمبيوتر كأداة كاتبة، ففي مصر نستخدمها إما كديكور في مكاتب القيادات أو كوسيلة للعب (أتاري) أو لتحديد الفائزين في التنافسات المختلفة، وعلاوة على ذلك فإن استبدال التكنولوجيا بالعلم يحرمنا من فروع أخرى وثمرات متنوعة عديدة للعلم ولعل أهمها العلوم الإنسانية.

ولقد استشعرت الولايات المتحدة خطاً مدهما مرتين خلال النصف الثاني من القرن العشرين: كانت المرة الأولى أيام كندی عندما أطلق الاتحاد السوفيتي أول قمر صناعی (سبوتنيك)، وطالب كندی بعمل مشروع للنزول على سطح
الفقر في خلال عشر سنوات - وقد كان. وكانت المرة الثانية عندما شعرت حكومة بوش بخطر المنافسة من اليابان وألمانيا، ونشر بوش تقريره الشهير بعنوان "أمة في خطر". وكانت أهم التوصيات في كلما المرتين الاهتمام بالتدريس والبحث في العلوم الأساسية كالرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، وعلوم الحياة.

وينبغي علينا أن نعلم علم الباقين أننا لن نحل مشكلة البلهارسيا في بلدنا إلا عندما يكون لدينا كرادر من العلماء الحقيقيين، الذين يجيدون علوم الرياضة والكيمياء والفيزياء والهندسة الوراثية وعلم الأحياء الجزيئي.

***

في كتابه الرائع عن طبيعة العلم يناقش ليون وليبرت اختلاف العلم عن التكنولوجيا فقولاً: تعمد أغلب التكنولوجيا الحديثة على العلم، ولكن هذا الارتباط الحديث يعمينا أحياناً عن الاختلافات الأساسية بين العلم والتكنولوجيا، فالعلاقة بين العلم والتكنولوجيا لم تبدأ إلا في القرن التاسع عشر. ويوضح وليبرت كلامه فقولاً بأن ألقاناً من الاختراعات والتكنولوجيات التي اكتشفتها البشرية قديماً ( كالعجلة، والآلات الحربية، والثمار، والعاد، وتكنولوجيا الزراعة والبناء... إلخ) قد تمت في غياب العلم. ولكن هذا لا ينبغي أن يحاول نظرنا عن الأهمية القصوى للعلم ولهجه العلمي. فصحيح أن التكنولوجيا هي إحدى ثمار العلم، ولكن للعلم ثماراً أخرى متعددة منها العلوم الإنسانية، ومنها مجرد معرفة الإنسان بنفسه وبيئته.

وقد اتولنا نحن في مصر بازدراء العلم لنفس التكنولوجيا. ففي أوائل الخمسينيات رفض أحد وزراء التعليم اعتماد شهادة دكتوراه تناقش فقرات
الضغداة، وكانت حزته في ذلك أن البلد في حاجة إلى "العلوم النافعة".
وهكذا قطعت قيادة البلد علاقتها بالعلم تحت هذا الشعار الخاطئ، فانحرت كلية العلم، وبعد أن أنجبت قادة عظماً للعلم مثل مصطفى مشرف وإبراهيم حلمي عبد الرحمن ومصطفى طلبة ورشدي سعيد وعبد الفتاح القصاص وعبد العظيم أنيس، أصبحت هذه الكليات مريئة بالحركات الإرهابية والجهل والدجل والشعوذة.

وقد انتهى هذا الازدراء إلى كلية الطب، فبينما يحصل طالب الطب في أمريكا على بكالوريوس في العلم بدراسة لمدة أربع سنوات قبل التحاقه بكلية الطب (التي يدرس فيها أيضاً أربعة سنوات)، قامت الهيئة التعليمية في مصر باللغاء السنة الإعدادية، التي كان يدرس فيها الطالب مبادئ علوم الحيوان والنبات والفيزياء والكيمياء، بحجة عدم حاجته لهذه المعلومات، وتحت شعار خاطئ وخطر بأنه يجب أن يتعلم فقط المعلومات التي تنفعه ولذا أصبح لدينا الآن خريجون من Serviceable Knowledge يمارسون مهنة الطب في القرن الواحد والعشرين ولا يعرفون مبادئ علوم الفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة.

وهكذا انعكس عداء قادتنا الطبيعى للعلم على العلماء، وكما يتزعج وحش جاهل طفلاً من صدر أمه التي يعتمد عليها فيتحول في يده إلى جثة هامدة، هكذا صنع قادتنا بالتكنولوجيا. فالتقنية الحديثة تعيش على العلم وفي غياب قاعدة علمية مؤهلة وقادرية تذوي وتضيء وتتحول إلى جثث من الحديد والزجاج والبلاستيك. أي أننا استبدلنا العلم بالتكنولوجيا ففقدنا العلم والتكنولوجيا.

١٢٤
ولا تقل لي إن هذا هو شأن كل بلاد العالم الفقير، فأمامنا بلادان عديدة فقيرة.
حتى الآن سجلها مضى بحب العلم وطريقها واضح للتقدم مثل الصين والهند.
وهناك بلادان عديدة بدأت فقيرة مثلنا ووصلت إلى قمة الرجال بفضل الاهتمام
بالعلم مثل نمور آسيا.

و نتيجة لغياب القاعدة العلمية لاختيار التكنولوجيا واستيعابها فإن توزيع التكنولوجيا على أوجه الحياة المختلفة قد أصبح مظهراً وليس وظيفياً: أدخل إلى غرف القيادة العليا للوزارات وسوف ترى أحدث التكنولوجيا المعلومات والاتصالات والتكيف، ثم، أذهب إلى معامل الأبحاث وفضل المدارس وغرف المرضى ودورات المياه في مرافق الدولة المختلفة وسوف تتبعج من غياب أبسط مظاهر تكنولوجيا البحث العلمي والتعليم والتمريض والمراحيم.

وهكذا، فبدلاً من أن تكون التكنولوجيا المستوعبة علمياً أساساً للتقدمنا وراخائنا أصبحت عبئاً على نسورنا وازدهارنا لأن ما استورداها من تكنولوجيا وكلفنا الملايين قد تحول إلى جثث هامدة مشوهة وكل هذا لأننا نسينا أن التكنولوجيا ليست العلم.

إن العلم شجرة ورقة، جذورها هي العلوم الأساسية (الرياضيات، الكيمياء، الفيزياء، علوم الحياة) وعصور حياتها هو النهج العلمي وفروعها تنشر العديد من الثورات منها التكنولوجيا الحديثة، ومنها العلوم الإنسانية، ومنها علوم البيئة، ومنها وأهمها مجرد معرفة الإنسان بنفسه.

ديسمبر 1994

125
العار... والغيرة

أحمد الله كثيراً على أنني أمارس مهنة أستطيع أن أجيب إجابة قاطعة على جانب كبير مما يوجه إلى من أسئلة في مجالها. أما أصحاب المهنة التي تتعلق بالسياسة أو بالاجتماع أو بالفنون أو بالأداب فكان الله في عونهم إذ هناك العديد من العوامل التي تتدخل في الإجابة: منها مسألة "الحقيقة" وصعوبة الوصول إليها ونسبتها، ومنها طبيعة السائل نفسه، ومنه ستروج الإجابة، ومنها ما يطلق عليه اسم "المحورات الفكرية"، إلى آخر هذه العوامل التي يسير المتخصص فيها أحياناً وكأنه يسير في حقل ألغام على رمال متعركة. فما بالك بغير المتخصص.

فإذا كان الموضوع يتعلق بمقال كتبه الدكتور جلال أمين فإن المسألة تصبح أكثر تعقيداً، فمن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن يعرف من يعرف جلال أمين عما كتبه تقريباً موضوعياً، وأن أقرأ وأتعرف بأنه مرتبط بعب ومعزة وباحترام شديد للآخرين حسين وجلال أمين، رغم الاختلاف بينهما في المواقف السياسية وأعتقد أن أجعل ما قرأته مؤخرا كأن كنت لهما، وعندما سافرت مؤخراً لزيارة ابنتي في الخارج كان أهم ما حملته من هدايا هي مصنوعات خان الخليلى الفضية والتحساسية ولوحات حسن رجب البردية ونسخ من كتب حسين وجلال أمين. ولهذا فإنه في منتى الصعوبة على الكتابة عما
كتب جلال أمين، خصوصاً إذاً كتب في موضوع اجتماعي هو تخصصه العلمي، وخصوصاً أنه أقنع في جانب معارض لما يقوله. ولولا اقتناع بأهمية القضية وتداعياتها لما أقدمت على ما أنا مقبل عليه.
أما بعد... استعنا على الشقاء بالله.
فقد كتب الدكتور جلال مقالاً في الأهلية، ورد عليه الأستاذ عبد المعطي حجازى في الأهرام، وتكرر الحوار بين الطرفين، وعلق على هذا الحوار الأستاذ فهمي هودى في الأهرام.
نحن إذن أمام معركة فكرية مهمة. نحن إذن أمام حجر ألقى في الماء وأثار أمواجاً عالية. بل وانتشار منه بعض الرذاة على المتفرجين ومنهم على سبيل المثال، كما وصفه الدكتور جلال. "جار" الأستاذ عبد المعطي حجازي في عموده بالأهرام. الدكتور غالي شكري. ومنهم أيضاً كل "العلمانيين" وهي كلمة تعني في لغة الأستاذ فهمي هودي: خليطاً من أعداء الإسلام، والمحتدين وعملاء الثقافة الغربية، وأنصار الانحلال. إنه تعبينا عند بعض الناس. أنصار المجتمع المدنى المستند إلى ما يشتهبه ما يطلق عليه - حتى لو طبق في الهند أو اليابان - اسم الديمقراطية الغربية.
وباختصار شديد، فقد قال الدكتور جلال في مقالة الأول في الأهلية، إنه في أثناء دراسته في إنجلترا كان يشعر بالعثر لتخلف مصر الاقتصادي، أما الآن، فإنه يشعر بالندم على شعوره هذا القديم (أو إنه، وهذا من عنيد، يشعر بالعمر لشعوره السابق بالعثر. وقد تكرر الكلام عن "العمر" في مقالات الدكتور جلال الأخيرة) وأضاف إلى ذلك أنه كان دائماً يشعر ببعض التحظ على كتاباته طه حسين وزكي نجيب محمود في هذا المجال.
وقد يكون هذا الجزء من المقال مفهوماً، فشعور الإنسان بالغار، أو شعر بالغار، لشعوره بالغار أو رغبته في إبداء التحفظ على كتابات، هو شعور شخصي لكل منا مطلق الحرية فيه، بل وقد تؤديه في تصحيح موقفه من الغار، فلماذا الشعور بالغار لخطأ لم يركبه؟ ولماذا الشعور بالغار لوضع لم يكن لشعب مصر يده فيه؟ لقد وضعت الجغرافيا مصر في موضع تصادمت فيه كل محاولاتها الحديثة للتقدم، أيام محمد علي وعبد الناصر، مع مصالح الدول العظمى، فتحالفوا عليها مع العملاء المحليين، فتسبب الجغرافيا في فساد التاريخ.

ولكن مقال الدكتور جلال لم يقف عند هذا الحد، فقد ترددت بعد ذلك عبارات في مقاله تترك انطباعاً برفضه لمقولته إحدى "المتخفون" وتهاجم رغبة بعض المفكرين في التقدم عن طريق التنمية العلمية والصناعية.

ومن الطبيعي أن يثير هذا الرأى كثيراً من التعليقات خصوصاً بين أصدقائه جلال أمين، فقد بنى هجومه على وصف ما نحن فيه الآن بالتخلف على مقولات غير واضحة تتجاهل كل المقايس الموضوعية للتقدم والتخلف مثل الأمية والتعليم والثقافة والصحة والمرض والفقر والشراء وتوافر المسكن والملابس والقوة والضعف والفنون والموضة إلى آخر هذه المقايس التي يتخذها أغلب البشر المتحضر في شرق وغرب العالم مقياساً للتقدم والتطور، كمابنى رفضه للتقدم عن طريق التنمية الذي تسير فيه أغلب الشعوب في العالم من الهند إلى نمور آسيا إلى اليابان إلى الصين على أساليب معترضة في عدم الوضوح.

وأغلب الظن أن كراهية الدكتور جلال أمين للدول الرأسمالية الغربية لما تسبب فيه هذه الدول من تعاسة في العالم – وأغلب المشقيفين الوطنيين
يشاركونه هذه الكراهية - قد امتدت ظلالها حتى شملت وسائل التقدم التي وصلت بهذه الدول إلى ما هي عليه من قوة، والتي مكانتها من أن توفر لشعوبها معيشة لا تستطيع إنكار تقوتها في كافة أوجه الحياة.

وموطن الضعف الواضح فيما أورده الدكتور جلال هو أنه لم يقدم البديل لفساد التقدم والتخلف إذن؟

وما طريق التقدم الخاص بنا الذي يقترحه الدكتور جلال؟

وهل هو يرضى بما نحن فيه الآن؟

وخطورة ترك هذه الأسئلة بدون إجابة هي أنها تفتح الباب على مصريته أمام الدجالين والنصابين (وهل من عملاء الغرب)، لفسافات وتهريبات تدخل إليها من الثغرة التي فتحها علينا عالم اجتماع واقتصاد كبير كالدكتور جلال أمين، خصوصاً وقد كان انعزاعاً من صفوف البشرية وإنفراد هؤلاء النصابين بنا لتغيير مسارنا هدفاً مستمراً لهذه الجماعات.

ولقد أثار رأي الدكتور جلال أمين بالطبع كثيراً من التعليقات، فرد عليه الأستاذ عبد المعطي حجازي بمقام قلبه في الأهرام كان أقسم ما فيه بيان التناقض بين موقف جلال أمين (في مشارف القرن الواحد والعشرين) وموقف والده المفكر أحمد أمين. ولم يستك جلال أمين على هذا الرأي فقد عقب في جريدة الأهالي بمقال دافع فيه بشدة عن جريدة الأهالي (؟) وأشاد بصفحتها الثقافية (؟؟) ودافع عن حقه في الاختلاف مع والده.

واتنح الاستاذ فهمي هويدي في هذه الفرصة الساحرة، ونشر مقالاً أبد فيه جلال أمين وهاجم كعادته، بقسوة العلمانيين، أعداء الدين، الماديين المخددين بالثقافة الغربية.. إلخ، ووضع في نهاية مقاله نقاطاً تمثل في رأيه
الخطوات البديلة للتقدم، وقال إنه استخلص هذا البرنامج من منابع الفكر الإسلامي، وطالب باعتماد هذا البرنامج كمقد اجتماعي لطريق التقدم الخاص بتنا.

ولقد كتب أكن حباً للأساتذة فهمي هويدى، خصوصاً في هجومه على الفساد الضارب في القيادات المصرية، إلى أن تقدم، بالاشتراك مع الدكتور كمال أبوعمجرة، ببرنامج عمل لحركة معينة من الإسلام السياسي، يعطي فيه نفسه ولأولاده وأحفاده حقاً مدنياً يحرمنى وأبنائي وأحفادي منه إلى أبد الآبدين ما لم نغير ديننا، وأنا شخصياً ليست لي أطماع في التمتع بهذا الحق ولكن "مرجعية" حق الأساتذة فهمى هويدى في مصدара حق لأبنائي وأحفادي إلى أن يرت الله الأرض وما عليها تزعمن ازعاجنا شديدًا.

والحق أن قضية "المرجعية" هي مركز الثقل في خطاب فهمى هويدى، فالتخطيط الذي ذكرها في تأييده لجبلة أمين ومعارضته لعبد المعطي حجازي تشكل برنامجاً لا يتألف ولا يعرفه في مجمله عن برنامج من يسمىهم بالعلمانيين. ولكن الأساتذة فهمى هويدى تاجر ماهر والتجارة شطارة، وهو لا يسرد هذا البرنامج لحده المطلق فيه ولكنه يسرده، كما سأثبت فيما بعد، كعينة جذابة لمراجعة خاصة تحاول أن يبيعها لنا. فالبرنامج على حد قوله مبنى على النصوص الدينية. ونحن بالطبع لا نتكلم إلا كل احترام لنصوص الأديان، كافة الأديان، ولكن أغلب هذه النصوص التي يرجع إليها الأساتذة فهمى هويدى قد دخلت في عيني وآذان بصير، وتفاعلت في عقول بصير، وفسرت بصعوبة بصير. والنصوص الدينية هي كما وصفها على بن أبي طالب رضي الله عنه "حمالة أوجه"، ويكفى أن نتذكر أن أعظم ما ارتكب في حق البشرية من جرائم بداية
بمقتتل الخلفاء الراشدين مرورًا بمحاكم التفتيش ومحاكمة وحقق رجال العلم، والاقتتال في أفغانستان، وانتشار المقاومة في سويسرا، ونهائي بقتل الشيخ الذهبي وفرج فودة والطفلة شيماء، ومحاولة ذبح نجيب محفوظ، قد ارتكبت على تفسير ما لهذه النصوص، وما يفسره الأستاذ فهمي هويدي بأنه ينص على مساواة البشر ذوي الأديان المختلفة، يفسره الآخرون بأنه يوجب محاربة البشر ذوي الأديان الأخرى، ولماذا الجدل الطويل: إنى أرجو من الأستاذ فهمي هويدي أن يرتب في التاريخ الحديث دولة حققت الهدف الأساسي للدين، وهو سعادة ورخاء وصحة البشر، بما ينادي به الأستاذ فهمي هويدي، ويكفي لنا على العلوم في هذا المجال، لقطع الإجابات في هذه القضية بالحديث الشريف: "أنت أعلم بشئون دنياكما".
وقبل أن يتهمنا الأستاذ فهمي هويدي بما ليس فينا، نود أن نتأكَد احترامنا للدين والاعتماد على الدين المهم في تحديد أهداف الحياة وتأكيد كافة واجبات العبادة، ولكن العبادة علاقة بين الإنسان وله، والأديان أسس من أن تتخذ ذريعة لفرض على البشر رأبه باعتبار أنه رأى الدين، ولنما اعتبرنا برنامج الأستاذ فهمي هويدي دعاء لمرجعية سوف يستمر منها ما يشاء، وليس حياً في البرنامج نفسه، إننا نرجع ذلك للأسباب الآتية:
أولاً: إنه لم يوضح لنا إلَى من سنعود في المستقبل إذا اختلفنا في تطبيق أي من نقاطه أو أردنا الاستزادة فيها.
ثانياً: إن كان الأستاذ فهمي هويدي مؤمناً ومخلصًا لهذا البرنامج في حد ذاته.
أ: لماذا يوجه هجومه المستمر إلى أنصار المجتمع المدني الذي لا يطالبون إلا بمثله؟
ب- ولماذا لا يوجه سهامه إلى أعداء أعداء هذا البرنامج ممن يقتلون الأبرياء والأطباء والأدباء وأصحاب الرأى؟
أليست من العلامات الدالة مقارنة ما كتبه فهيمي هويدي عن محاولة قتل تجيب محفوظ في حجم طابع بريد كبير، وما لم يكتبه إطلاقا عن مقتل الأبرياء، بما يخرج به كل أسبوع من اتهامات للطبيعة الفكرية المشقفة المنشقة بشتون وطنها؟
ألم أقل لكم "أحمد الله كثيرا على أنني...".

ديسمبر 1994
المخ.. طبقات بعضها فوق بعض

يقول ستيفن هرنر، أهم علماء الوباحة المعاصرين، في كتابه "موجز لتاريخ الزمن": إن عقل الإنسان يقف عاجزاً وقاصراً عن تفهم بعض ظواهر علم الطبيعة والتعبير عنها، وأن استيصال طبيعة هذا التصور يتطلب منا معرفة بالخصائص التي اكتسبها المخ البشري - آلتنا في تفهم هذه الظواهر - خلال تطوره، فليس من المنطقي أن نتصور أن المخ قد خلق وتطور، لتجمل علم الطبيعة ومعرفة الحقيقة فيما يتعلق بهذا العالم، إنها هو مؤهل خلال عمليات الاختيار الطبيعي لتحقيق على بقاء النوع في الصراع مع البيئة ومع الأنواع الأخرى من الأحياء.

ولقد اكتشف هيروفيلس، من علماء مكتبة الإسكندرية، منذ ألفي عام أن المخ، وليس الكبد أو القلب، هو موطن انفعالات الإنسان المختلفة كالحب والكرامة والحق، بل إن المخ هو "الذات" فلو تصرنا إحساسنا إمكانية نقل الأعضاء إلى الآخرين فإن العضو الوحيد الذي ننتقل معه "الذات" إلى "الآخر" هو المخ.

وهكنا .. فإذا أراد الإنسان أن يعرف نفسه، فعلبه أن يعرف كيف يعمل معه.

ويتكون المخ في الجنس البشري - وهو أرقى كثيراً من مع الإنسان الواقف الذي سبق الجنس البشري في الظهور واختفى تماماً - من أربعة أجزاء أساسية
متطورة في وظائفها من الداخل إلى الخارج:

الجزء الأول، وهو أقدمها وأكثراً بديئية، يدعى جزء المخ - وهو الذي يقوم بالوظائف البيولوجية الأساسية كالتنفس، وانقباض عضلات القلب، وحركة الأمعاء. إلخ.

والجزء الثاني، وهو أحدث من الجزء الأول وأرقى منه، وهو مقر مشاعر العدوان والسخرة على المكان وهو يشاهد في تكوينه ووظائفه مع الزواحف.

وهكذا يمكن القول بأن في رأس كل إنسان يوجد مخ تماسح.

وفوق هذا الجزء يوجد الجزء الثالث: وهو مقر عواطف وانفعالات الحيوانات الثديية فهو موطن الحب ومقر مشاعر العناية بالأبناء والارتباط بالأسرة، وهو يشاهد في هذا مخ باقي الحيوانات الثديية من أصغرها كالجرذان إلى أكبرها كالفيلة والحيتان.

وفي هذا القسم، توجد قشرة المخية، وهي التي تميز الحيوانات الراقية. وتزن القشرة المخية في الإنسان حوالي ثلثي المخ، وهي مقر المعرفة والحساسية والتحليل النقدي والأنماط والوجهي والتجريد الرياضي والمنطق وسماع الموسيقى وتفهمها وتأليفها، وتتكون القشرة المخية من آلاف الملايين من خلايا خاصة تدعى "عصوبات" تكون فيما بينها من اتصالات كهروكيميائية مخازن لحوالي مائتي ألف ملء معلومة. وتدعى وحدة المعلومة في الكمبيوتر Bit.

ومن أهم التطبيقات العلمية لدراسات المخ، ما اكتشف في مجال الإدمان وعلاجه، فمنذ بدأ الإنسان في صناعة الأفيون وتدمير الكحول، سقط مليـين من البشر في هوة الإدمان وأصبحوا "سجناً للذنوب". ولقد أعنتت البشرة الظلم
هذه العقاقير القائمة منذ القدم، ف دقيقة على الأفيون في علاج السعال والإسهال، وارتكب فرويد خطأ جسيمًا عندما ظن أن الكوكابيين علاج ساحر لكثير من الأمراض النفسية، واستعملت قيامات جيوش الحلفاء مركبات الأمفيتامين في بعث النشاط والحيوية في الطيارين أثناء القتال.

ودفعت شركات الأدوية بمركبتي البنزداباريبان "كالفالو وليفيريوم" يزعم أنها لا تنسب في الإدمان، وصدق الأطباء والمرضى هذه الأكاذيب. ولكننا نعرف الآن أن هذه المواد يمكن أن تؤد إلى حالة يصبح مستعملها معتمداً اعتماداً كلياً عليها وينتج عن التوقف عن استعمالها تغيرات نفسية مؤلمة بل بشعة وهذا ما يُطلق عليه اسم الإدمان.

ولقد بدأت دراسات الأساتذة العلمية النفسية للإدمان في أوائل الخمسينيات. فلقد اكتشف هيث من جامعة لوريزان أنه قد ينشئي أقطاب كهربائية في رأس مريضة عجوز مصابة بالاكتئاب، أن يبعث فيها مشاعر "اللثة" يدفعها للضحك. ووصفت المريضة هذه المشاعر بأنها قريبة من اللثة الجنسية، وعندما أعطت المريضة مجموعة من الأدوية تتحكم في أقطاب كهربائية متصلة بمناطق مختلفة من الدم، كان اختيارها يقع دوماً على زرار ينشط نواة خاصة في أعمق الدم اعتبرها العلماء مصدر الشعور باللثة سواء أكانت لثة الأكل والشرب أو لثة الجنس. أي أنها "نواة اللثة".

وتمكن بعد ذلك العالم جيمس أولدز - في منتصف الخمسينيات - من دراسة هذه النواة في فئران التجربة. فقد درب الفئران على الضغط على رافعة خاصة تنسب في دفع شحنة كهربائية في "نواة اللثة". ووجد أولدز أن الفئران تتعلم بسهولة الضغط على هذه الرافعة وتحبه، بل وعندما وضع بينها وبين
الرافعة عوائق تسبّب في صدمات كهربائية مؤلمة للفقار، فإن الفشار كانت مستعدة لتحمل هذه الصدمات واجتياز العقبات ودفع ثمن التمتع باللذة. وتمكن العلماء بعد ذلك من الحصول على هذه النواة بتشريح مخ فئران التجارب ودراساتها وأتضح أنها تعتمد على مادة كيميائية تدعى دوبامين، ومن المعروف أن مرضى الاكتئاب لديهم نقص في إنزيم هذا المادة. وقد أكتشف العلماء أن كل العقاقير التي تسبّب في الإدمان، تعمل على خفض الشحنة الكهربائية التي يحتاجها الفقار لتحفيز النواة، ومن هنا كانت علاقة هذه العقاقير باللذة. ولكن الاختلاف الأساسي بين اللذة الناتجة عن الجنس أو الأكل، وتلك الناتجة عن تشتيط "نواة اللذة"، هو أن الأولى يتولها "إشباع" أما الثانية فلا إشباع لها.

كان من أهم خطوات التقدم في ميدان الإدمان هو اكتشاف هانز كوسبرليتز من جامعة أبردين باسكتلندا: لقد استخلص هذا العالم مواد تشابه المورفين من أملاح الحيوانات. وسربت هذه المواد "إنكفيالين" ووجد أنها تسيطر على وظائف مختلفة من أنظمة الجسم كما وجد أنها، تماماً كالمورفين، تحد من شدة الألم. وهكذا أثبت كوسبرليتز أن كل حيوان يصنع مورفينه من مخه. وأن تعاطيال المورفين يتسبّب في خفض قدرة الإنسان على إنتاج الإنكفيالينات وبالتالي يتسبّب إيقاف العقار في المظهر الجماعي المختلط.

وقد أدت حرب فيتنام إلى تعاطي مئات الآلاف من الجنود الأمريكيين للمورفين والأفيون. وتسرب هذا الوضع في أن الإدارة الأمريكية قررت حقق مئات الملايين من الدولارات في مراكز دراسة المخ والإدمان - وتقدم العلم في هذه المجال تقدماً كبيراً.

فاكتشف مثالاً أن هناك العديد من الجنود الذين تعاطوا هذه المخدرات لفترة طويلة في فيتنام قد تخلى عنها بسهولة بمجرد عودتهم إلى الولايات المتحدة، وصبرت هذه الظاهرة العلماء لمدة كبيرة وظنوا أن السبب في ذلك هو تغيّر
البيئة، ثم اكتشفت وسيلة لدراسة النشاط في مناطق الدم المختلفة ووجد
باستعمال هذه الطريقة أن المدمنين وأولادهم لديهم نقش وراثي في أحد هذه
المراكز، وأن هذا النقص ينتج عنه القابلية للإدمان، ووجد هذا النقص أيضاً في
أبناء مدمن الكحول، واعتبر هذا النقص علامة للأشخاص المعرضين للضعف
أمام الإدمان. وقد يتحول هذا الكشف إلى وسيلة لتمييز الأشخاص المعرضين
لخطر الإدمان وحمايتهم منه.

ولقد ظن العلماء لفترة طويلة أن بعض المهندسات مثل الفاليوم والليبريوم لا
تتسبب في الإدمان ولكنهم اكتشفوا بعد ذلك خطأ هذا الظن، بل وجدوا أن
طريقة تأثير هذه المهندسات تشابه كثيراً تأثير الكحول. إذ أن وجدوا الكحول
والفاليوم يسببان في إغلاق مراكز خاصة تمر بها أيونات الكالسيوم إلى داخل
الخلايا العصبية لتشتيطها، وأن الاستعمال الطويل لهذه المواد (الكحول
والفاليوم) يؤدي إلى أن تقوم الخلايا بتعريض هذا بفتح قنوات جديدة
للكالسيوم. وعندما يوقف المرض عن تعاطي العقاقير يصبح لديه عدد أكبر
من مستقبلات الكالسيوم - القديمة والحديثة - ولذا يصاب بالتهيج
والرعشه.

كانت أهم أهداف هذه الدراسات إلى جانب تفهم فسيولوجيا الإدمان، هي في
العلاج، وأثبت الأطباء المعالجون أنه لا يمكن الحكم بشفافة المريض تماماً
إلا بعد تعريضه للك "شعائر" الإدمان وإثبات أن تعريضه لها لا يسبب في أي
تغيير في درجة حرارته أو سرعة نبضه. ويتم هذا بأن يوضع المريض المعالج في
غرفة تحت المراقبة - وأن يوصل جسمه بأقطاب كهربائية تقيس درجة حرارته
وسرعة نبضه.

ديسمبر 1994
نشأة العلم

هل نعيش في مجتمع متخلف؟
ما دلالة ذلك؟
هل هي العلاقة الخاطئة بالعلم؟
فأين ومتى ولمذا حدثت هذه الأخطاء التي تسببت في شقائنا وتعاستنا؟
أين وقعت هذه الأخطاء التي دشنت تخلفنا وأبطلت تقدمنا؟
قد نتفق أو نختلف على تعريف "العلم" بمفهومه الحديث في العالم المتقدم، وقد نتفق أو نختلف على مدى علاقته بالحقيقة المطلقة أو النسبية، وقد نتفق أو نختلف على فهم كارل بير أو توماس كون أو يميني الخولى، أو زكي نجيب محمود له، ولكننا لابد في نهاية الأمر أن نتفق على أن "العلم" هو أقرب الطرق حتى الآن للمعرفة الصحيحة، وأن من يملك نواحيه يحصل على القوة التي تمكنه من التعامل مع الطبيعة ومع غيره من البشر بما يتطابه دينه وأخلاقه ووجدانياته. ولابد لنا أن نتفق كذلك على أنه بدون تملك ناصية العلم فلا شرف ولا كرامة ولا سعاده ولا استنارة ولا معنى للحياة في عصرنا الحديث، فلا شرف في الفقر والتلفح - رغم محاولاتنا الساذجة المضحكة لحجب وجه وأذرع بناتنا وزوجاتنا، ولا كرامة في مهلة الضعف واستجابة الغذاء والدواء من الخارج - مهما شجبنا وصحتنا وتفاخرنا بالأصول.
سعادة في مرض وتخلف طفل أو موت شاب في فترة عمره - مهما تعاطينا من مخدرات مادية ومعنوية، ولا استنارة في مجتمع تنشر فيه كتب عن "علاج الإيدز بالأعشاب" وعن "ري الظلمان" في عالم السحر والجنان. (الأهرام 31 أغسطس 1994) وتناول فيه برنامج تليفزيوني عن كيف تحقق على 700 امرأة في الصباح و 20 امرأة في المساء، وعن اقتصار شر الحاسد بالاغتسال في ماء وضوئه، وعن رابطة روث الجنان - وكل هذا في مشارف القرن الواحد والعشرين.

وتخلفت وضعفتنا - سواء كمصريين أو كعرب - يتبين عن أخطاء في علاقتنا بالعلم. فبكين ومثى وحنا إذا حدثت هذه الأخطاء التي تسببت في شقائنا وتعاستنا! أين وقعت هذه الأخطاء التي دشنت تخلفتنا وأجبرت تقدمتنا؟ لقد نشأت وترعرعت الحضارة الصناعية الحديثة للصين وكوريا والصين في ظروف أسوأ من ظروفنا ومع ذلك تقدمتنا مثل محاولات سيزييف تنتهي دائما بالسقوط المذري؟ لماذا تعود نساوتنا بعد حركة قاسم أمين بنصف قرن إلى عصر الحريري! لماذا أخذ منا الغرب ابن رشد واحتفلوا به وارتقوا به، بل وأطلقوا عليه اسمأً محرفاً وأعطونا بدلاً منه تموا الإكريوني الذي احتفينا به وقدمنا Avertoes جديدناً، فلسته بأسماء عربية وسقتنا معه إلى القاع بلتلاسة الجهل والظلم.

له من المفيد، في أزمتنا الحالية، أن نتأمل في نشأة العلم والظروف التي ساعدت على ترعرعه، والظروف التي عطته. وبنظره سريعة، سنكتشف أن أغلب المفكرين يتفقون على أن نشأة العلم بمفهومه الحديث كان مقرها اليونان وبالذات في منطقة غرب آسيا الصغرى كانت تدعى أيونيا. ولقد
نقل إليتنا أدبنا وأفكارنا كثيراً من وجهات نظر وفلسفات الحضارة الإغريقية، وسنحاول أن نتعرف في السطور التالية على بعض أوجه جذور العلم التي نشأت في اليونان.

أيونيا

تقدمت على فكر جانبي من البشر حتى الآن فكرة أن العالم مسرح عرائس تتحرك خيوط غير قابلة للتفسير وترادهر هذه الفكرة وتنتشر في فترات الظلام في تاريخ الأمم، وتذوي وتضمن في فترات التحرر والتقدم.

ومنذ ألفين ومائتين عام نشأ في منطقة كانت تدعى أدونيا - وهي مجموعة من المدن والجزر كانت توجد على الشاطئ الغربي لقبرص الصغرى ( تركيا الآن) - قوم يعتقدون أن كل شيء مصنوع من ذرات وأن الأدميين والحيوانات الأخرى قد نشأت من أنواع أكثر بساطة وأن الأمراض لا تنجب عن المفاجئ والجن بل عن أسباب يمكن للعقل البشري أن يفهمها. وهذا أتصف فكر هذه الجماعة بأهم خاصية تمثل العلم وهي اختصار الظواهر المختلفة المعقدة إلى قوانين بسيطة يمكن تفهمها. وكذا قبل مولد السيد المسيح ستة قرون، ولدت فكرة جديدة تقول بأن العالم قابل للتفهم لأنه يسير على نظام Cosmos داخلي. وأطلق الأيونيون على هذا العالم المنظم اسم كوزموس.

وهي كلمة إغريقية تعني "النظام" عكس Chaos، وهي كلمة تعني الفوضى. ولكل، لماذا ظهر هذا الفكر في أيونيا؟ لماذا لم يظهر في الهند أو في الصين؟ لماذا لم يظهر في مصر أو الفينيقية؟ لماذا لم يظهر في أمريكا؟ لماذا لم يظهر هذا الفكر في هذه البلدان رغم تقدمها جمعياً في التكنولوجيا؟ تكنولوجيا البناء، تكنولوجيا الزراعة، تكنولوجيا الحرب، تكنولوجيا...
التثبيط؟

ينبغي لنا هنا أن نتذكر الفرق الشاسع بين التكنولوجيا والعلم فقد بني المصريون الهرم دون أن يعرفوا قوانين الروافع، وقسم البابليون الأرض الزراعية دون أن يعرفوا قوانين الهندسة. لماذا إذن رغم هذا التقدم التكنولوجي لم يظهر هذا الفكر في هذه البلاد؟

يقول المفكرون إن السبب في ذلك يرجع إلى أن أيونيا كانت مجموعة من الجزر متفرجة من أي دوجما أو فكر متحجر سابق. لم يكن بها تركيز للقوة يفرض سيطرته على الفكر والدراسة. كان للمصريين دياناتهم القوية وكان لليهود عهدهم القديم، أما في أيونيا فقد كان الوضع مخافة:

كانت الآلهة المسيطرة على المنطقة هي مردوخ من بابليون وزيوس من اليونان. وكان رجال الدين التابعون لكل إله يكرذون الآخرين.

واحتار الأيونيون أنهم يصفون، فإذا صدقوا إليها فلابد أن الآخر كاذب.

وأراح الأيونيون أنفسهم وكتبوا الطريف.

وهلكنا نشأ في الفترة بين عام 600 - 400 م م.م فترة في الفكر الإنساني.

وازدهرت الثورة. وظهر عدد من العلماء، وظهرت أيضاً بعض الالتباسات الفكرية (الفيشغورثيون) إلى أن قوي مركز بعض القادة وظهرت اتجاهات إمبراطورية وظهرت تجارة للعبيد، فاضمحل تأثير العلماء الأيونيين واجأته الضرية القاضية في البلد الأم، اليونان، على أيدي أفلاطون وأرسطو. وبعد إفتخارة أيام مكتبة الإسكندرية من 300 م.م إلى 400 م.م والتي انتهت بسيطرة الكنيسة في الإسكندرية وقتلها لأهم العلماء في ذلك الوقت (هيبياشيا) بعد ذلك دخل العلم في ظلام دامس إلا في أيام العلماء المسلمين
ثم نام بعدها العلم إلى أن تم تحريره بتحطيم الصورة الأرسطية للعالم على يد
كونتريكس وكيلر وجاليليو ونيوتن.
طاليس:
يعتبر أغلب فلاسفة العلم أن أول العلماء الحقيقيين هو طاليس من ميليتوس
(600 ق.م).
وميليتوس مدينة صغيرة على الطرف الشرقي لآسيا الصغرى يفصلها عن
ساموس وهي جزيرة مهمة في تاريخ العلم والفلسفة - ممر مائي صغير.
ولكن ما الذي ميز طاليس عن غيره من الفلاسفة والمفكرين الإغريق؟ إن
الذي يميز طاليس هو أنه أول مفكر وضع نظريات مبنية على الملاحظة وقابلة
للتدقيق أو التأييد. فقد عاش اليهود في ظل توراة تريحهم من عبء التفكير
وعطىهم "دليل عمل" للحصول على "أرض الميعاد". وقد افترض المصريون،
وهم تكنولوجيون مهارة، أن الشمس تسافر على مركب يقودها الإله رع. أما
الإغريق فقد زعموا - واستراحوا إلى هذا الزعم- أن الآلهة وعلى رأسها الإله
زيوس يديرون شؤون الأرض والناس. أما طاليس فلم يقبل هذا كله وأخضع كل
نكاره للدراسة والتجربة والتقدير.
لقد افترض البابليون أن الأرض مصنوعة من الماء وأن الإله مردوخ قد فرد
سجادة فوق الماء فكان الجزء الصلب من الأرض. ووافق طاليس على أن كل
المواد مصنوعة من الماء، فقد لاحظ أن الماء يمكن أن يكون صلباً (ثلج) أو
سائلًا أو غازًا (بخار) كما لاحظ أن كل الأشياء الحية تحتوي على الماء،
ولكنه تجاهل مردوخ في النصف الثاني من الفرض. فقد زعم أن تكون الجزء
الصلب من الأرض قد حدث نتيجة لعملية تشبه تكوين دلتا النيل التي درسها

١٤٢
في فترة وجوده في مصر.

نجح طاليس في وضع نظرية لقياس ارتفاع الأهرامات بقياس ظلها ومعرفة زاوية الشمس عند الأفق، وهي الطريقة نفسها التي يستعملها علماء الفضاء الآن في قياس ارتفاع الجبال الموجودة على سطح القمر.

وكان طاليس أول من أسس علوم الرياضيات المختلفة وأثبت النظريات الهندسية، ووضع "الفروض الأساسية": الدائرة يقسمها نصف قطرها إلى قسمين متساويين، إذا تقاطع خطان فالزوايا المتقابلة تكون متساوية، الزوايا المتساوية داخل نصف الدائرة هي زوايا قائمة. وهكذا - ولأول مرة صدرت مقولات عن الخطوط والدوائر والزوايا. وهكذا لم تعد الرياضيات مجرد وسيلة لأغراض مؤقتة، لقد أصبحت الرياضيات علماً. وبعد ثلاثة قرون حقق إقليدس هذه النظريات وأضاف إليها وألف على أساسها كتابه "عناصر الهندسة" وهو الكتاب الذي اشتهر نيوتين من أحد الأسواق والذي فجر في عقده دراسة عن التفاضل والتكامل ونظرياته الرياضية التي أدت إلى العلم الحديث.

وهكذا ولأول مرة وجد اعتقاد بأن هناك قوانين تحكم الطبيعة، وأن هذه القوانين قابلة للكشف، وأن هذا الكشف قابل للمناقشة والحوار والتدبر، وهكذا تم الخروج من القياس الميكانيكية... وهكذا ولأول مرة أيضاً، بدأ الإنسان يفكر في الطبيعة والكون كشيء مفصل عنه.

ومن هذا التيار وترعرع، ولمعت أسماء: ظهر أبا قراط أبو الطب الذي نعرفه بقلمه المشهور وظهر ديموقيترس وارتتفعت فروع شجرة العلم إلى مكتبة الإسكندرية: إلى إقليدس وأرشميديس وأرسطوئس... هذا التيار المتحذق الذي انتهى بهبباشيا، عالمة الرياضيات العبقرية التي قتلاها.
سيول الأول (كيرلس) بابا الإسكندرية فدخلت البشرية بعدها عصر الظلمات.
ولم يكن الطريق كله مستقيماً مسيناً سهلاً فمع ظهور بعض الحكام المستبدين في أثيوبيا ومع ظهور العبودية، ظهر تيار مزاً من "علماء السلطة" الذين يغلقون علمهم بغلاف من الغيبيات والأسرار.

أنا كسيموندر

إذا كان طاليس هو أول من حير الفكر العلمي من هيمنة الآلهة (مردوك وزيوس في ذلك الوقت) فإن صديقه ورفقته عماره أناكسيموندر هو، على قدر علمنا، أول من أجرى تجربة علمية. فدراسة للظلال المتفرقة لمصا رأسية تمكن من قياس السنين والمواسم بدقة بالغة، ويصف كارل ساجان عالم الفيزياء والفلسفة العالم هذا بقوله "الألف السنين كان البشر يستعملون العصى في تحضير رؤوس بعضهم البعض ولكن أناكسيموندر استعمل العصا في تجديد الوقت، وهكذا كان أناكسيموندر أول من صنع "مؤونة" في اليونان.

وضع أناكسيموندر بناء على مشاهداته نظريات عديدة. فقد افترض بأن الأرض معلقة في الفضاء ولا ترتكز على شيء. وافتراض بأن ثباثها معلقة قد تنتج عن أنها توجد في مركز الكون، بما أنها توجد على مسافات متساوية في "الكرة السماوية" فإنه لا توجد قوة تستطيع تحريكها بعيداً عن هذا المركز.

لاحظ أناكسيموندر أن أطفال البشر يولدون ضعافاً ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد الطبيعة المعادية، واستنتج من ذلك استحالة أن يكون الجنس البشري قد بدأ بظهور أطفاله على وجه الأرض. واقترح لذل ذلك أن تكون الحياة قد نشأت من الطين وأن أول الحيوانات كانت على شكل أسماك مغطاة

١٤٤
بالأشواك وأن هذه الحيوانات قد ارتقت فخرجت من البحر إلى سطح الأرض ومنها الجنس البشري.

ولعل أكثير أفكار أناكسيمندر عبقرية هي، قوله بأن البشر أكثر ذكاء من الحيوانات لأن لهم أيدي يعملون بها. وقد أثبت العلم الحديث هذه الفكرة تشريحاً: فالقدرة المكتشفة بالتطور على التحكم في العضلات الصغيرة ليد صاحبها المقدرة على التحكم في العضلات الصغيرة للوجه (الاتصال) وصاحبها التحكم في العضلات الصغيرة للسان (الكلام والتفكير).

ويتحدث القديس أوجستين بمراة عن أناكسيمندر فيقول عنه إنه "لم يختلف عن طاليس. فليس في سبيباته لمظاهر الحياة المختلفة مكانة لعقل سماري".

حكم الطفاة

استولى على الحكم في ساموس حوالي عام 540 ق.م. الطاغية بوليبقراطيس. وبدأ من هذا التاريخ سوف يلاحظ دارس تاريخ العلم أن حكم الطفاة يصبحه تغيير جذري في مسار العلم، إذ يختفي العلم بمعناه الحقيقي، العلم المبني على تفاعل العقل والمنطق مع المشاهدة والتجربة، العلم القابل للنقض والتكذيب، ثم يظهر نوع غريب من العلم - إذا كان من الممكن أن نسميه علمًا - يحتوي على غيبيات مصطنعة وأسرار غريبة. هذا ما حدث أيام ستالين (ليستكو) وهذا ما حدث أيام هتلر (التطهير الجنسي) وهذا ما حدث بعد استيلاء بوليبقراطيس على الحكم: ضمر العلم الحقيقي المشارك على خط طاليس وأنا كسيمندر، وانتشار العلم المقنع بخلاف من الأسرار والغيبيات، وأصبحت المجموعة الأولى تنشر أفكارها على الشعب كما سنرى فيما بعد في

١٤٥
منشورات سرية تحجبها عن الحكام والسلطات الدينية وأصبحت المجموعة الثانية - الممثلة أساساً في الفيشاغورثيين - تنشر أفكارها بلغة سرية تحجبها عن الشعب، بل لقد نظرت الأمور أحياناً، كما يذكرونا الدكتور نؤاد زكرياء في ترجمته الجميلة لكتاب برترياند راسل عن "حکومة الغرب" إلى حد معاوية من يذيع أسرار هذه الأفكار على الشعب بالقتل غرقاً.

نشأة العلم

ويصاحب حكم الطغاة أيضاً نمو وضخم للتكنولوجيا، فقد بنى بولیقراطس سوراً مرتفعاً حول عاصمته محفوظاً يحرف نفقاتاً طيلة يمتد من آبار المياه حتى المدينة تحت جبال ضخمة، وتم هذا العمل الجبار بتخطيط المهندسين التكنولوجيين، ويعرف ودما الابد المارقين أن سهمهم مراكب بولیقراطس بعمليات القرصنة. وظهر في هذا الوقت أيضاً من التكنولوجيين ثيودورس الذي اخترع الكالون والمفتاح والمسطرة، وفارة الوجب والمخرطة، والتذفئة المركزية. إلخ.

سنعود بعد قليل إلى الفيشاغورثيين بعد مناقشة تاريخ العلماء الذين ساروا على طريق طاليس و أناكسيمندر.

أنا كساصوراس

انقل هذا الخط من الباحثين التجريبيين من أبانيا إلى اليونان وإيطاليا وصلقياً. وكان من أوائل نجومه أناكساصوراس الذي عاش في أثينا حوالي عام 546 م.

وصف أنا كساصوراس الشمس والنجوم بأنها تتكون من أحجار مشروعة بالحرارة، وقال بأن القمر ينير بانعكاس الضوء عليه، وهكذا قدم نظرية تفسر
دورة القمر الشهرية. في هذا الوقت كان أهل اليونان يعتبرون الشمس والقمر من الآلهة، وكان من الخطرة إذاعة مثل هذه النظريات، ولذا فقد كان أناكساجوراس يذيع نظرياته في منشورات سريعة، وكان هذا عملاً جريئاً منه يعبر عن احترامه للعقل وللعلم. فقد فسر أرسطو بعد ستين من أناكساجوراس كل الظواهر المتعلقة بالقمر بأن هذه هي "طبعته" وهو، كما هو واضح، تلاعب بالألفاظ لا يفسر شيئاً.
ودفع أناكساجوراس مشجراً فسجح منهما بالكفر - وهي تهجة ستتكرر كثيراً في تاريخ العلم.

إيميسدوكليس:

لعل أول من أجري تجربة على الغازات هو إيميسدوكليس (545 م.) الذي أجري تجربة على إحدى أدوات المطبخ المستعملة في هذا الوقت وتدعى "سارة المياه" كانت هذه الأداة تتكون من كرة مفرغة من النحاس ولها من ناحية مجموعه من الفتحات ولها من الناحية الأخرى عنق على شكل ثقبة ويمكن القبض على الثقبة باليد وسدد فتحتها بالإبهام. يتدفع الماء داخل الكرة حتى يملأها ويسد الفتحة بالإبهام ويمكن إخراج الكرة والانتقال بها فيما فيها من الماء إلى مكان آخر حيث يرفع الإبهام فتنتقل المياه من الثقبة. وللحظ إيميسدوكليس أنه إذا وضعت الكرة في الماء مع سد الفتحة فإن الماء لايدخل الكرة، واستنتج من ذلك أن هناك "مادة ما" تحول دون دخول الماء في الكرة. لم يكن البشر قبل ذلك يميزون بين الفراش والهواء ولكن إيميسدوكليس أثبت أن ما يحيط بنا ليس مجرد فراغ بل هو "مادة" محددة وهي الهواء.
كان لإيميسدوكليس نظريات أخرى عديدة: فقد كان يظن أن للضوء سرعة كبيرة

١٤٧
وإن كانت محددة. وقد سبق إمبيدوكليس داروين في بعض أوجه فكرة التطور بالانتقاء الطبيعي.

أبو قراط:
في جزيرة مجاورة لساموس تدعى كوس كان يعيش طبيب يدعى أبوقراط (500 قبل م.م.) وهو كاتب القسم الشهير الذي يقسمه كل طبيب قبل ممارسته للمهنة. كانت مدرسة أبوقراط في الطب تصر على دراسة مبادئ الأسس الفيزيائية والكيميائية للصحة والمرض. وأورد في كتابه عن «الطب القدوم» درساً للسادة الذين يدعون النجاح والنجاح في مستشفيات الأمراض العقلية عندنا في مشارف القرن الواحد والعشرين، وقال ما يمكن ترجمه كالآتي: «يظن الناس أن الصرع من عمل الشياطين لمجرد أنهم لا يفهمونه، ولكن لو أن كل ما لا نفهمه أرجعناه للشياطين، فإن حياتنا كلها ستتصبح شياطين في نفوسنا».

ديموقريطس:
في بلدة صغيرة تدعى أبدرا في شمال اليونان ولد ديموقريطس (480 قبل م.م.) وكان لديموقريطس آراء ثبت صحة كثيرة منها: كان يقول إن هناك أكثر من عالم واحد، وكان يعتقد بأن هذه «العوالم» تصفم أحياناً ببعضها ببعضاً وأن بعضها من الممكن أن تكون بها حياة، وكان يظن أن كثيراً من هذه العوالم قد تكونت من اتحاد جزيئات سدما كبيرة.
وقد اقترح ديموقريطس كلمة ذرة وهي كلمة إغريقية تعني «غير قابل
الفيثاغورثيون

يصف برتراند راسل فيثاغورث بأنه "أسس ديانة تقوم على تناسق الأرواح وتحرم أكل الفول. وتجسدت ديانته في نظام تحكم في بعض الأماكن من الدولة (وبدأ كان أول نظام ثيوقراطي). ولكن الكثيرة سرعان ما اشتكوا إلى الفول وثاروا عليه.

وفي الحقيقة فإن مدرسة فيثاغورث قد تزعمت في ظل حكم الظغوة وحكم العبودية. فقد كان الفيثاغورثيون يرتفعون بأنفسهم فوق مستوى العلماء الحقيقيين من أمثال طاليس وأناكسيمندر، ويرفضون أن يلوثوا أيديهم بالعمل والتجارة وأن يشغلوا أفكارهم بما هو ليس له الكمال. وقد أثر الفيثاغورثيون بشدة في أفلاطون وبعد ذلك في المسيحية.

ولد فيثاغورث مثل طاليس في ساموس حوالي عام 565 ق.م. وعاش في الفترة التي حكم فيها الدكتور بوليركانتوس.

كانت لفيثاغورث والفيثاغورثيين إضافات جديدة ومهمة للمعرفة. فقد كان فيثاغورث أول من استنتج أن الأرض كروية (رغم الفتاوى بعكس ذلك التي تصدر حتى الآن من بعض المصادر). وقد اكتشف أيضاً وأثبت أن مجموع مربعات الأضلاع الأقصر للمثلث قائم الزاوية تساوي مربع وتر المثلث. وقد أثبت فيثاغورث ذلك رياضياً وأدخل بذلك إلى المعرفة البشرية ما يمكن أن يسمى بالمنطق الرياضي. وكان فيثاغورث أيضاً أول من أطلق على العالم كلمة Cosmos.
فيثاغورث والفلاشاغورثيون استعملوا لوصول إلى تفهم هذا النظام طريقةً تختلف عن طاليس وممتهجه: فقد كان فيثاغورث يرتأي بنفسه أن يستعمل يديه وحواسه وكان يزعم أن قوانين الطبيعة يمكن الوصول إليها بالفكر المطلق.

وقد تسبب هذا الحب للمطلق في انهيار الفلاشاغورثيون بالأشكال الهندسية: وكان أبسطها المكعب ثم الأشكال الأخرى المستمدة الأضلاع. ووصل اعتقادهم إلى حد الزعم بأن كل المواد تتبع عن أربعة أشكال هندسية هي رباعي octahe - Cube الأسطح، ثماني الأسطح Tetrahedron الأضلاع (الأرض والنار والهواء drom Icosahedron ذو العشرين سطحاً، والماء Dode- cahedron) أما الشكل الخامس الممكن وهو الذي له اثنا عشر سطحاً فقد أحاظه الفلاشاغورثيون بنطاق من السرية باعتبار أنه شكل هما أشكال "كاملة"، وأصروا، بدون دراسة، على أن الكواكب لكونها أجساماً سماوية تسير في مدارات دائري وسرعة ثابتة. وهي فكرة بقيت مسيطرة على فكر أفلاطون وأرسطو واستمرت خلال عصور الفضول إلى أن حطمها جوهانس كيلر (1571-1630).

وهكذا نشأت مدرسة فكرية تحتقر العمل والعملي، ففرض أفلاطون الناس على دراسة السموم وقال أرسطو بأن "السفلة بطيبتهم عبيد، ومن الأفضل لهم أن يظلوا تحت حكم سادتهم".

وأكدت العلم كوسيلة للمعرفة إلى أن نشأت مكتبة الإسكندرية (300 ق.م).
ثم انتشر المنهج العلمي بقتل هيباشيا آخر العلماء المحترمين ما عدا رمضان من بعض العلماء المسلمين.
ثم دخل العلم عصر الظلمات إلى أيام كورنيكوس وكبلر وجاليليو ثم نيوتن فالعصر الحديث للعلم.

يناير 1995
الطبيع: سلبياً .. وإيجابياً

أدخل في السنوات الأخيرة جهداً خارقاً في محاولة زرع بذور التوافق بيني وبين نظام الحكم. لقد أضععت عمري في "المناقرة" و"المشاجرة" مع نظام الحكم المختلفة من فاروق إلى عبد الناصر إلى السيدات إلى مبارك؛ ولذا فقد أقنعت نفسى مؤخراً بأن الخلافات بيني وبين هذه النظم هي مجرد خلافات نسبيّة وأنه أآن الأوان أن "أهدم" وأن أتوقف عن هذا "التناطق". ولقد حققت في هذا المجال (زرع بذور الانسجمام) إنجازات رائعة، ثم اكتشفت أنني لم أكن وحدي في هذا الميدان، فإذا كانت إنجازاتي سلبية، بمعنى تحقيق القبول لما هو موجود، فإن صديقى د. حسن على قد حقق نجاحات إيجابية متفرقة.

وبالنسبة لى، فقد عودت نفسى أن أتكلم بهدوء مقولات السيد الوزير بأننا نعيش "أروع أيام الديمقراطية" وأننا أكثر تقدماً من أكبر البلاد المتقدمة وأرقام النظام عن مدى الرخاء والعظمة التي نعيشها. كما أعدت أن أشرح في سمحة ومنوبة وبدون غضب كلما شاهدت السيد المذيع المستأنين في كلامه والمتألق في نفائه وهو يناقش في لباقه مصطبغة محاورته من رؤساء تحرير الصحف القومية موضحاً ومؤكداً أننا نعيش أمجاداً تاريخية لم نشها من قبل.
كما عودت نفسي أن أبتسم في سعادة بلها، كلما سمعت السيدة مذيعة التلفزيون المروقة الشعر والأفراح تدعو "أعزائي كل أفراد الأسرة في كل مكان وزمان" لكي يلتفن هواة المسلسلات الأجنبية أو نشط الحبل أو الفرجة على السخافات حول التلفزيون "تسعد معاً" (14؟) ببحة من الورد والزهور. إلف.

ولم أعد أتساءل عن الحكمة في تعبين س - (من الناس) - وكل مؤهلاته هي المقدرة القائمة على التمثيل الرخيص - رئيساً لمجلس إدارة صحيفة قومية فيصر منappear في العديد من النشرات التي لا يقرأها أحد والتي تتسبب في خسائر مالية فادحة تغطيها الدولة، وذلك في بلد أنجبت أحمد بهاء الدين ومحمد حسين هيكل وفتحي غانم وكمال زهرى وصالح حافظ وسلامة أحمد سلامة ومحمود فضة، نبيل ومصطفى نبيل وعادل حمودة.

كما عودت نفسي على أن أقبل بصدر رحب خطب وبيانات السيد وزير الزراعة عن أمجاد وزارته في ميادين القطن والأرز - بعد أن تنازل مؤخراً عن أمجاده في ميادين الخيار والكانتالوب والفاوالة.

وأصبحت أقرأ أسرار خطب السيد الدكتور فتحي سرور بعد أن نزل في الديمقراطية لم يسبق لها مثيل من كرسي رئيسة المجلس إلى صفوف الأعضاء ليهاجم هادراً بضراوة القوانين سيئة السمعة التي سبق أن وضعها امتلاكاً تزوير القوانين في حزبه (وعله قد بدأ فيها مجهود ضئيلً أهله لما هو فيه) وذلك بعد أن أيدها عندما صدرت وسكت عنها حتى عدتها الرئيس، ناسياً مجرد ذكر الصحف التي أغلقت بالأحزاب التي أوقفت والقوميين الذين اعتقلوا لمحاربيهم لهذه القوانين.

وكتبت نفسي عن النساذا من الحكمة في وضع هؤلاء الناس في مناصبهم،
فالقيادة السياسية تفيدنا دائما بأنها تسمك بكافة الخيوط وتعرف كافة الأسرار ولا بد أن لدينا دوافع مهمة ( وإن كنا لا نعرفها) لوضع هؤلاء الناس في مراكزهم القيادية.

وعودت نفسي على ذلك وعملت بالحكومة الأمريكية (لاحظ التطبيع) التي تقول "إذا لم تجد ما تحب فلتحب ما تجد". وهكذا تعلم أن أعاب السيدة المنيعة والسيد النديع والسيد الوزير. إلخ.

ولكن نجاح في مجالات التطبيع السلبي لا يقارن بامجاد حضري د. حسن على في مجالات التطبيع الإيجابي:

فصديقي - وهو جراح كبير - قد أفادني بأنه قد تنازل حسب تعليمات الحكومة تنازلًا تامًا إما يطلق عليه اسم "العقد الاجتماعي" لأنه (أي العقد) قد أصبح "موضة قديمة" من أيام الحكم الشمولي علاوة على أنه لا يتفق مع عاداتنا وتقاليدنا ونا يمثل غازوً ثقافياً.

والعقد الاجتماعي الذي كتبه جان جاك روسو (1712 - 1778) ينص على أن يتنازل كل فرد في الدولة عن كثير من الحقوق (حق زراعة ما يشاء من أرض - حق الانتقال حينما يريد - حق الدفاع عن نفسه بالطريق التي يراها - حق دفع الضرائب .. إلخ) مقابل حقوق جديدة تمنحها له حكومة تعبير عن رغبة جماعية. ولقد تقدمت واتسعت هذه الحقوق حتى أصبحت تشمل الصحة والتعليم وفرص العمل والأمن والكرامة وحرية العبادة. إلخ.

لقد طبع صديقي علاقته بالدولة بالتنازل عن كافة حقوقه والاستغناء عنها.

"الحلول الذاتية يا سيد" هكذا حدثني "لا بد أن نستمع إلى تعليمات الدولة، فالحلول الذاتية هي الحل. الحلول الذاتية والإن جي أو و索赔ه عما هي
"إن جي أو"؟ قال: المنظمات الأهلية، هذه هي صيحة العصر. فسألته ولم
الضرائب الفادحة إذن؟ قال: والعفة عليه "لازم يعيشوا هما كما ما هي دي
الحلول الذاتية بتاعتهم". عمراً، بعيداً عن منطقه، وأنا قد لا أتفق معه عليه، فقد اتخذ صديقى
إجراءات جذرية لتنفيذ فلسفةه في التطبيق الإيجابي.
فهو يوفر الأمان لنفسه ولأسرته بالإيجار من شركة من شركات الحرسا وعنده
أسلوب من السيارات لتنقلاته. وهو يربي أولاده في المدارس الخاصة
وبمدرسين خصوصيين وسيلة تحققهم بالجامعة الأهلية. ولديه مولد كهربائي
خاص. بل لقد وضع في منزله وهو في أحد ضواحي القاهرة الصحراوية، طلمية
وبيارة مجارى للاستغناء عن مرفق المياه ومرفق الصرف الصحي.
وسألت صديقى عن الإعلام، فقال "الدش يا سيد مع بعض الإعلام المحلي".
فقد كلف إحدى الشركات بعمل برنامج كمبيوتر يحل محل التلفزيون المحلي:
والم أصدق ووجود هذا البرنامج حتى رأيته بعيدأ:
بالضغط على حروف T.V تظهر على المونيتور (شاشة الكمبيوتر) أرقام
أمامها كلمات "أخبار"، برامج ثقافية". إنه جريت الرقم الخاص بالبرامج
الثقافية فكان ما رأيته سحراً: ظهرت على الشاشة نقط ذهبية تجمع على
شكل كتلة كبيرة من الشعر (بفتح الشعر) وظهر خلف أسفلها عينان يحيطهما
ألوان عديدة ثم فم مبتسم يكشف عن صفجة أسنان ثم ظهر باقي الوجه
والفستان الفاقع الألوان ثم يد تحمل ميكروفون.
تتحدث هذه الكتلة فاقعة الألوان فتقول وهي تبتسم
الأصل فاصلاً
والعقل واصلاً
ولما نجراً
حقيقة حاصل

قال صديقي "من الممكن إعادة ترتيب هذه الكلمات أو استبدالها بآخر ولكن المهم جداً أن تتفع وتتنخفض نبرة المذيعة وهي تقولها مع هزة خفيفة للرأس".

تخفي المذيعة من الموتيور وتسمع صوت موسيقى نشطة يصحبها دقائق كل أربع دقائق تظهر نقطة في جانب من الشاشة لتتكبر وهي ترقص لتصبح صورة تملأ الشاشة: محمد عبد الوهاب، أحمد شفيق، زمارية، نجيب محفوظ، طبلة، سمير رجب، سيد مكاوي، قطة، عود... إلخ تبقى الصورة ثانية ثم تختفي مثلما ظهرت. قال لي صديقي "غير مهم ما تشعر به من غثيان ودوخة من اهتزاز الصورة فهو شعور جميل مثل شعور الطفل في مدينة الملاهي".

ثم أخيراً تظهر السيدة المذيعة (السابق وصفها ومعها إنسان يبدو عليه الوقار والبهجة. وتحذير المذيعة ويدور الحوار كالآتي:

"لو حبينا يمكننا نتكلم يعني "وهي ترقبها "ياني" عن نظرة المستقبليه خلال الأربعة وعشرين ساعة إلى جاية عن هذا الموضوع الهام ياني يمكن نقول إنهة؟

الرجل بعد تفكير عميق: "في الواقع ده سؤال مهم جداً ويبعث على التأمل العميق، لو حبينا نتكلم في هذا الموضوع لابد نجيب أوله فحسب تعليمات السيد الوزير في بيانه الأخير علينا أن نتدارس هذا الموضوع دراسة وافية.

نذة لأن فيه الأمن والأمان.

١٥٦
- شكرًا، يانى! إننا يمكن ألا ننسى يمكن أهمية هذا الموضوع فمصر دائمًا شامخة مثل الأهرام.

سيداتي سادتى يانى يمكن بهذا نكون ودعنا يمكن النقط فوق الهرام.

عودة للصورة الذاهبة والآتية.

وأفادته صديقتي بأنه عنده برامجه يمكن أن تنتج بما يطلق عليه اسم "ناشر المكتب" جريدة يومية تتحدث عن "خطاب تاريخي"، "صدقي الخطاب التاريخي". إله، بل زعيم أنه بوضع مداخل معينة في الكمبيوتر يستطيع أن يكتب "الخطاب التاريخي" نفسه.

هكذا يا سيدي، يمكننا الاستغناء عن الحكومة ويمكن للحكومة أن تنفرغ للأعمال الهامة. يجب على الأفراد أن يحملوا جانباً أكبر من المسؤولية، الحكومة فقيرة والشعب غني.

وهذا التطبيق السلبي والإيجابي سيستهني جيلنا المناصرة حتى نعيش ما بقي لنا من عمرنا في سلام وراحة، فقد رفعنا الرأية البيضاء أمام فضيحة المعداوي...

آسف أمام البيب عاطف والبيب وإلى والبيب صفرت.

يناير 1995
أمريكا
.. والثقافة العلمية (أ)

مقدمة
عائد من أمريكا.. عائد وقلبى مفعم بالدهشة والإعجاب والحسد.. عائد وقلبى مفعم بالأسى والحزن والغضب.
أما الإعجاب فبأمريكا. ولا ينبغي هنا أن نخلط بين الإعجاب والحب، فتاريخ قادة هذه الدولة مليء بما لا يبعث على الحب، بداية بما فعلوه بالهنود الحمر والزنج المختطفين من أفريقيا، مروراً بما فعلوه بالفلبين وجرافينالا، وبنما والمكسيك وشيلي وجزرها وكوريا وفيتنام، ونهاية بما فعلوه لنا الآخرين. إنما هو إعجاب من عينية أن ترى لصاً قد اعتدى عليه بطريقه ذكية فتقول بدهشة وإعجاب "يا ابن الله..."
وأما الأسى والحزن والغضب فلما نحن فيه الآن في مصر، فمازلنا حتى الآن نتناقش فيما تناقش فيه المعتقلة وابن رشد، بل ولقد عدتنا ونحن في مشارف القرن الواحد والعشرين إلى مناقشة قضايا كنا نظن أنها حسمت مع ثورة 1919 في عشرينات هذا القرن، فإذا ما نكتشف أنها قد عادت إليها بوجهها البغيض، على يد زمرة اتخذت من الدين، أشرف ما للبشرية من مشاعر سلالاً.

١٥٨
لتخدع به البلايين من البسطاء والأبرياء لتقنعهم أن حل مشاكلهم هو في تعلم مراة دخول المرحاض وفي إلغاء الادخار وفي قتل السواح والموقف الآن على هذا الكوكب هو ببساطة كالياني: إن من أخذ بنواصي "العلم" والمصطلح العلمي" تمكن من توفير السعادة والرخاء والصحة لامته، واستطاع أن يحرر إرادته، بل وأن يفرض - إن أراد - إرادته على غيره. نعم لقد قامت حضارات في الماضي بغير العلم. قامت في مصر، وقامت في بابل، وقامت في الصين، وقامت في أغنا، وقامت في روما، وقامت في المناطق الكبرى التي أقام عليها المسلمون دولتهم. لقد قامت هذه الحضارات على وسائل أخرى للمعرفة والحكم الصحيح، ولكن، ومنذ القرن السابع عشر، أصبحت الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تقوم عليها الحضارات هي الأخذ بناصة العلم. فلا كرامة ولا صحة ولا تحرير إلا إرادة بل ولا أخلاقي بدون العلم وسيضحك التاريخ والعلم على كل محاولاتنا الساذجة للحصول على الكرامة والشرف بحجب أوجه وعقول بناتنا وأمهاتنا وزوجاتنا.

وهذه هي إذن قضية محسمة، بل إن مهارة العلم باسم الدين هو في حقيقة الأمر مهارة للدين، فالأديان - كل الأديان - تحرص أساساً على أن توفر الإنسان ما لا يمكن توفيره في العصر الحالي إلا بالعلم والمنهج العلمي.

ومن التقدم الساحق الذي حققه العلم في أمريكا، فإن، الدولة تشعر أنها في وضع خطر، إذ أنها قد تكون متخلفة في هذا المجال عن بلدان أخرى في العالم. ولقد بلغ هذا الأمر ذروته عندما أصدر الرئيس السابق جورج بوش مذكرة الشهيرة "أمة في خطر" والتي تدور فيها من الوضع الموجود وطالب باهتمام الدولة بتعليم العلوم خصوصاً في مجالاتها الأساسية كالفيزياء.
والرياضة وعلم الأحياء والبيولوجيا الجزئية.

ويتوقف جانب كبير من المفكرين في العالم أنه إذ كانت مقاليد التقدم في العقود الأخيرة في يد علوم رائق السليكون، فإن التقدم في العقود المقبلة سيكون في يد علوم الحياة كالهندسة الوراثية والبيولوجيا الجزئية. وعلى هذا، فإن الجهات القيادية في أمريكا تعتبر أنه في وجود 40% من السكان لا

يؤمنون بالتطور البيولوجي، عقبة خطيرة أمام التقدم الحضاري.

ولن نتعرض هنا بالتفصيل لمستوى تدريس العلوم في المدارس، فالمدرسة المجانية وغير المجانية، تتمتع بمكانة مهمة في المجتمع، والتدريس، وخصوصاً تدريس العلوم، هو أشرف وظيفة يمارسها إنسان، ووسائل الإيضاح والتعليم لها الأفضلية الأولى في ميزانيات الولايات المختلفة.

ولكن إلى جانب هذا كله فإن الدولة قد تمكنت من فرض العلم على وسائل الإعلام والتشقية المختلفة. ففي ولاية صغيرة وفقرة مثل فلوريدا، توجد قنوات متخصصة تماماً للعلم - إحداها تدعى "الاكتشاف" والأخرى تدعى "قناة التلفزيون التعليمية". وهذا إلى جانب البرامج العلمية التي تذاع على القنوات الأخرى. ويركز العديد من هذه البرامج للأسباب كالتي سبق إيضاحها، على البيولوجيا الجزئية والهندسة الوراثية والتطور والبيئة وتنشر فيها جمل وتعابير "الانتخاب الطبيعي" و "بقاء الأصلح". ولا عجب فإنها من الصعب في العصر الحديث تفهم علوم مثل وظائف الأعضاء، والتشريح، والهندسة الوراثية، بل وفي رأى هوكنز في كتابه عن "تاريخ الزمن"، أنه لا يمكن تفهم علم الطبيعية، إلا في ظل تفهم كيف يعمل البشري، الذي تطور بالانخاب الطبيعي إلى ما هو عليه الآن.

وإلى جانب التلفزيون، فليست هناك صحيفة أو مجلة أمريكية محترمة تخلو من صفحة للعلم بحرها مجرد كفء قادر على تبسيط أخطر الحقائق.
العلمية دون أن يتحول صفحته من صفحة للعلم والإعلام إلى صفحة للإعلان.
وهكنا، ففي بلد من أشد بلاد العالم تقدمًا، فإن العلم تزداد جرعته يوماً بعد يوم. أما عندنا، فالعلم يزدر بالغياب النام لحساب برامج في التليفزيون تتحدث عن روث الجتان ولحساب صفحات في الإعلام المقرؤ، تتحدث عن كرة القدم.

هذه هي مكانة الثقافة العلمية في أمريكا وهي لا تنفرد بهذا، فقد هو الوضع في كافة بلدان العالم التي تهدف إلى مزيد من التقدم. وهذا هو الوضع عندنا، وهو الوضع السائد في بلدان العالم التي تسير إلى الخلف. وهكنا تنبع الفجوة بين تقدمهم وتخلفنا، وهكنا قريناً من القرن الواحد والعشرين وقد أصبحنا عبئاً على الحضارة والتقدم، وليس لدينا ما نقدمه سوى الوقود الحفري الذي سيغدو قيمته خلال ربع قرن. وهكنا أصبحنا في خطر أن نتركنا العالم المتقدم لنفخنا من نفاياته.

وهناك، إلى جانب التليفزيون والإعلام المقرؤ، جانب مبهج آخر فى اهتمام أمريكا بالعلم، فبينما نحننا، في مصر في التخلص من متحف جميل للعلوم، ومتحف رائع للجيولوجيا، ومن متحف السكة الحديد، فإنه لا توجد للعلم.

أرجو من القاري أن يسمع لي بأن أحدنا متعلقين مقبلين بزيارتي العروض العلمية في مركز أبكوت في أورلاندو وفي متحف السيميثسونيان في واشنطن.

أبريل 1995
أمريكا
والثقافة العلمية (٢)
مركز إبكوت

مؤلف ومحرر بل ومفنز ما آلت إليه ثقافتنا خلال ربع قرن ولعل أشد
ظاهرة هذا التدهور إيلاماً للنفس هو ما حدث لثقافتنا العلمية، فقد انهار
واختفى من حياة أبنائنا وبناتنا كل ما له علاقة بالعلم، واستولى على عقولهم
الشابة الدجالون والنصابون. اختفت المدارس، اختفى الإعلام
العلمي، وتدحرت المتاحف العلمية: اختفى متحف العلوم، واختفى متحف
الجيولوجيا (أين ذهب مقتنعاته التي كانت لا تقدر بمال؟)، أغلقت القبة
السموئية، تدهور المتحف الزراعي، وتدحر متحف السكة الحديد.
أما في العالم الذي يتحرك إلى الأمام فالأمر مختلف...

تقع أوراندوج وهى مدينة سياحية صغيرة في ولاية فلوريدا، على بعد 100
ميل شمال ميامي، مشتى أثرياء أمريكياً. يوجد بهذه المدينة الصغيرة عشرات
من الأماكن التي يعشقها السياح، ولكن أروع ما فيها هو مركز إبكوت
إبكوت وهي الحروف الأولى لجملة تعني "نموذج الأولي التجربى
Experimental Prototype Community of To-
لمجتمع الغد". ويجري إلى هذا المركز يومياً مئات الألف من الرواد الذين يقدون
morrow
من جميع أنحاء العالم لزيارة هذا المركز الجميل.
تنشر مباني هذا المركز حول بحيرة رائعة وعلى مساحة تبلغ حوالي ألفي

١٦٢
فدان. ويوفر المركز وسائل النقل المريحة لرواده: متروبول يصل الداخل بالخارج، لتشتات في البحيرة، أتوبوسيس في الطرق، عشرات من العربات الكهربائية للمعوقين وعربات صغيرة للأطفال، كما يوفر عشرون من المطاعم الصغيرة والكبيرة ووسائل الاتصال المختلفة. ويغطي جانباً كبيراً من مساحة المركز أروع النباتات وتنتشر فيه النافورات الساحرة التي ترقص مياها على أنغام الموسيقى وعلى الأضواء الملونة المبهرة ليلاً. وكل بوعضة مريحة في الألفي فدان تتطق بالاهتمام البالغ وبالجمال والذوق الرفيع.

يتنازل حول البحيرة قوسان من المباني: القوس الأول يسمى "عالم المستقبل" والثاني يسمى "معرض العالم". في القوس الأول توجد مبان بعناوين عن العلم وعالم الغد وأهمها:

- كوكب الأرض مركب فضاء
- عالم الطاقة
- البحر الحية
- الاتصالات
- الأرض
- رحلة في عالم الخيال المبدع
- عجائب الحياة

وفي القوس الآخر (معرض العالم) تعرض بعض الدول أروطار ما عندها من ثقافة وعلم بعروض سينمائية ومسرحية ومطاعم وأماكن لبيع الهدايا. ويمثل الدول العربية والأفريقية والإسلامية في هذا العرض دولة واحدة هي المغرب.

تستخدم في كافة العروض وسائل الترتيب المختلفة: سينما على شاشات دائرية أو مجسمة، آلات صوت ستريو، نماذج متحركة، مسارات من الكمبيوترات التي يمكن تشغيلها بلمس الشاشة، عشرات من الروبوتات التي تتلقى
التعليمات بالصوت وتتر عليها كتابة وصوتي، والخصوصية العامة هي الدقة العلمية البالغة والشرح الواضح القادر على الوصول إلى كل المستويات.

لن أستطيع طباع أن أصف المركز الذي زرتني في العام الماضي لمدة يوم ثم سمحت هذا العام على قضاء يومين به لمحاولة استيعاب جانب كبير منه.

ولكن ليستعي القارئ أن أهذه في جولة سريعة ببعض المنشآت.

الأرض مركب فضاء:

يوجد العرض في مبنى كروي ضخم قطره حوالي مائة متر. يصل الزائر من المدخل إلى رصيف يتحرك بسرعة مثالية لسرعة مركبات مفتوحة تسير على قضبان. وتنحرف هذه المركبات بالزائر في رحلة تستمر حوالي الساعة خلال عروض تستغرق ثانية عشر طابقاً داخل المبنى. خلف كل مقعد يوجد سماعات تشرح للجالس ما يمر به وما تذيعه السماوات في كل مقعد تختلف عما يناع في المقعد الذي يسبقها أو المقعد الذي يليه - حسب الموقع من العروض الموجودة. تمر المركبة المفتوحة، بعروض متحركات رائعة عن تطور الجنس البشري من الإنسان الواقف إلى الإنسان العاقل، ثم إلى عصتنا الحالية مورياً بالعصر الحجري أيام الإنسان الصيد الجامع إلى استئناس الحيوانات والزراعة ثم تمر ببداية الاتصال والكلام ثم قسم رائع ضخم عن الحضارة الفرعونية والحضارة الأشورية ثم الهيللينية ثم الرومانية ثم عصر حضارة العلم والصناعة ثم عصر الألكترونيات والكمبيوتر ثم عصر البيوتكنولوجيا والهندسة الوراثية. النماذج كلها متحركات متكاملة تكشف تمكن مطابقة للواقع وتنير الجولة بدراسة تفصيلية لمنظر الأرض من الأقمار الصناعية.

164
الطاقة:

يدخل الزائر قاعة ضخمة يحوطها شاشات عرض دائري تعرض تاريخ وأنواع الطاقة. والطاقة أساساً نوعان: الطاقة غير المتعددة ومنها طاقة الحفريات مثل الفحم والبترول والطاقة المتعددة مثل الرياح والشمس وأمواج البحر والمياه والمجرز. يذكر. ونفهم من الفيلم أن الطاقة غير المتعددة سوف تفقد الجانب الأكبر من أهميتها خلال ربع قرن لأسباب عديدة منها نفاذاها (فهى غير متعددة) ومنها أيضاً أنواعها على البيئة. وبعد العرض تتحرك مçiاعد القاعة على شكل مجموعات صغيرة للمرور بنماذج مختلفة للطاقة. ونفهم في نهاية الرحلة أن كل الطاقة المستخدمة في هذا العرض مستخرجة من خلايا ضوئية كهربائية على سطح المبنى.

الأرض:

عرض متعدد من علاقة الإنسان بالأرض في أحيانا يركز الزائر مربكاً تسريع في قناة وتمر به بين أنواع متقدمة من تكنولوجيا الزراعة. قي قسم "الزراعة لآلى" يرفع شجر الخيبار إلى عشرة أمطار مستنداً على هياكل يابانية. وتحمل الشجرة عشرات الشجر، وذرو الشجرة موضوعة في كوب كبير من المياه تحتوى على ما تحتاج إليه من الغذاء. وفي مزارع السمك مئات الأسماك من أنواع متعددة من الأسماك. يوجد في قسم "علاقات المحاصيل" دراسة علمية وافية وأثر كل محصول على غيره من المحاصيل.

المبتكارات:

مساكن الغذاء، حمامات الغذاء، مطابع الغذاء، مكتبات الغذاء، ثقافة الغذاء.

تدخل مركز ابتكار وتخرج منه إنساناً آخراً. كم هو جميل هذا العالم، كم هو قادر هذا الإنسان، كم هو رائع هذا المستقبل.

165
وهكذا تصنع الأمم المتقدمة وعيها متنحوضاً لأبنائها. بينما نصنع نحن
تخلفنا بترك أبنائنا لثقافة النحل والكتب الصفراء.
اسمح لى أبيها القاري العزيز أن أخذك في رحلة مقبلة إلى متحف مؤسسة
الميسيسونيان.

يونية 1995
أمريكا
.. والثقافة العلمية (3)

مؤسسة سميثسون

يتمجد وسط واشنطن طريق عريض جميل محاط بالحدائق الواسعة يدعى السميثسون - وهي المساحة المحيطة بالمبنى الكابيتول وينتهي بمبنى واشنطن - وهي بهذا المناسبة على عكس ما كتب البعض، مسألة صناعية داخلها مصاعد وأعلانها نواخذ تطل على المدينة. على جانب الهيئة sede يوجد العديد من المؤسسات الحكومية، وتوجد أيضاً مجموعة من المتاحف الضخمة. وتتبع هذه المتاحف مؤسسة تسمى السميثسون.

ولد جيمس سميثسون 1876-1915 في إنجلترا وتعلم في كمبريدج. وتبنى على احترام العلم والبحث العلمي، بدل مدفوعة بسيطة مشهورة "إن الرجل الذي يستطيع بالمشاهدة والبحث العلمي إجراء التجارب أن يضيف للمعرفة البشرية هو عضو مهم في المجتمع.

ترك سميثسون - وقد كان نجراً جداً بالوراثة - كل أمواله لإنشاء مؤسسة تحمل اسمه في واشنطن " التابعة المعرفة بين البشر" وسميت المؤسسة "مؤسسة السميثسون". واسمه لبيها القاري العزون في هذا المجال أن أبكي حزناً وأصلي على ما يخصه له أثرياء وأثرياء العرب جميعاً (باستثناء فلسطين) أموالهم من لهو وسناه.
تغير مؤسسة السmithsonian في واشنطن وحدها ستة عشر (16) متحفاً، أوسع على إحدى أكبر حدائق الحيوان في العالم وعلاقة على متحاف في مدن أخرى أهمها نيويورك. وتمتلك 139 مليون عينة ونموذج في متحافها. وتستعمل هذه النماذج في تحقيق هدفها الرئيسي وهو "الإثارة ونشر المعرفة" وعلاقة على هذا فالمؤسسة مرصد أبحاث، وبها مراكز تعليم، وتعطي منحاً دراسية للتنفر للفن والعلم والتاريخ. يزور متحاف السmithsonian سنوياً حوالي 5 مليون زائر.

من أهم متحاف السmithsonian الموجودة بالموقع: متحف التاريخ الطبيعي، المتحف القومي للفنون، متحف الطيران والفضاء، متحف هيرشلورن وديقته للفن الحديث، متحف الفن والصناعة، متحف الفن الأفريقي، المتحف القومي للتاريخ الأمريكي.

ودخول جميع هذه المتاحف، وحديقة الحيوان، مجانيًا. وذلك باستثناء بعض العروض الخاصة كالسينما والقبة السماوية، ودخولها على كل حال بأسعار تافهة بل وتخفيضات لكبار السن. وأمام هذا العرض الرائع وال"البوقيه المفتوح" من وجهات العلوم والفنون، يكاد المرء أن يفقد صوابه وأن ينسى ما حوله وأن يفقد الإحساس بالزمن، رغم أن متحاف الفن تخرج عن دائرة هذه المقالات لكن لا بد لنا أن نذكر أن متحاف السmithsonian في الموقع تحتوى على أروع المقتنيات العالمية إذ تحتوي مثالاً المتحف القومي للفنون على المكانيات الأصلية والتفاصيل لأهم كنائس العالم معمارياً بأحجام ضخمة يصل ارتفاعها إلى 7 - 8 أمتار. كما يحتوي على آلاف المقتنيات من رسوم الفنانين من جميع أنحاء العالم ومن

168
المحفظ الفنية المختلفة من نيرماند وروبينز ودولاكرز ومانيس ووجوانت وفوخ وتولوز لوتركل وبليكاسو إلى الفنانين الأمريكيين المعاصرين يغتم على المعجر الجيد. أما متحف هيرشبورن فيتميز إلى جانب الرسم بمناظة من التماثيل الصغيرة والكبيرة لرودن ودوجا ومانيس ومانيس وهنري ومور وبليكاسو.

وللعلم: أيتها الفناءات الفنريز: إلى منضوعتها الأولى وهو "الثقافة العلمية" وتسمح لي أن أذكر في جولة سريعة بعض متأشخر السيمپسونيان العلمية:

المتحف القومي للطيران والفضاء:

يضم المتحف في قاعاته نماذج حقيقية مع شرح واف لأهم أنواع الطائرات منذ محاولات الطيران الأولى إلى الطائرات النفاثة. ويضم المتحف أيضاً نماذج لأهم مركبات الفضاء ومنها غرف القيادة الفعلية لمركبة الفضاء أبولو 11 التي حملت رواد الفضاء إلى القمر، كما يضم قطعة من صخر القمر.

والإحترف قبة سماوية تسمى باسم عالم الفيزياء أينشتين، وهي تقدم عروضاً عديدة عن الفلك. كما توجد قاعة عرض سينمائي مزودة بالآلات عرض خاصة على شاشة بارتفاع 20 متراً تدعى IMAX وتقوم القاعة بعرض أفلام أهمها فيلم تفصيلي كامل عن أول رحلة فضاء تشارك فيها سيدة. والعرض، بفضل آلات العرض والصوت المتقدمة، يجعل المسؤول عن كونه قد اشترك بنفسه.

في هذه الرحلة.

المتحف القومي للتاريخ الطبيعي

يجمع المتحف في مخازنه ومعارضاته حوالي 8 مليون قطعة تحتوي على ما
تصفه نشرات المتحف بأنها "عينات من كوكب الأرض ومن الأشياء التي يصنعها قاطنوه". ومنها معادن وصخور من النبازك وحفريات عمرها ملايين من السنين ومسارات، منها ماسة الأهل، أكبر ماسة في العالم، والديناصورات والأقنعة والموميات والنمر والببر والخيال والحيوانات الجريبية. وتصف النشرات المعرض فتقول "إن العينات التي تراها، وثلج التي نختنها، تلعب دوراً مهماً في البحث العلمي، فهى تحقق نتائج الدراسات السابقة، وهي مصدر أفكار عن أبحاث المستقبل".

ويحتوي المتحف على عشقات من قاعات العرض الرائعة التنظيم منها مثلاً:

- قاعة الحفريات وتاريخ الأرض: كيف بدأت الحياة، ما هي أقدم حفريات متناسبة النباتات والحيوانات البحرية إلى سطح الأرض، ماذا حدث لحيوانات مثل الديناصورات، جذور أقدم شجرة معروفة، نماذج متعددة للديناصورات.

- قاعة تنوع الحياة: كيف تأكل النمل أنتوحا (أحد أنواع العناكب)، أنواع الثدييات السامة، كيف تفقد الضفدع، ما هي الأحياء التي تعيش في أعماق البحار على عمق كيلو مترتين في ظلام دامس.

- قاعة العشقات: و بها آلاف من الحشرات الحية، كيف تأكل وكيف تتناسل وكيف تضر بالإنسان وكيف تفيده.

- معمل الجينات للأطفال: وله أيضاً متخصصين يقومون بشرح الجينات والتطور للأطفال.
 حدائق الحيوان:

يحتوي على مساحات شاسعة من الجذالق والثلال والبحيرات والأفخاخ،
بها حوالي 3000 حيوان من 50 نوع، أغلبها من الحيوانات المهددة
بالانقراض. ومن أهمها المهمة المركز الأزواجه الملي بأنواع مختلفة من هذه
الحيوانات مع شرح وافي لطبيعتها. ومحطة الحفاظ على الشيا، ويبت
للباندا، وبيت للفرودا والأورانجوتان (إنسان الغابة). وتميز الحديقة
بالشرح الوافي التفصيلي لأهم خواص هذه الحيوانات.

ولعل أروع ما في الحديقة هو المبنى الذي تقوم بإعداده بعنوان "كيف يفكر
الحيوان".

أرأيت أبيا القارئ العزيز الفارق؟
أرأيت كيف تستورد الأفلام العالمية الرائعة التي صنعت الإثارة التساؤل
وحب العلم في الأطفال والشباب فحاولها بتعليقاتنا السطحية الغيبة قبل
عرضها.

أرأيت كيف يقوم أثرياء رأسماليتهم المنتجة بتشجيع العلم والتقدم بينما
يقوم أثرياء رأسماليتنا الطفيلية التي قامت على التجارة في البضائع الفاسدة
وعلى المضاربة على الأرض، وعلى بناء المباني بالأسمنت المغشوش ونهب
الناس، وتشجيع الدجل والجهل تحت راية السوق المفتوح وآليات السوق
والانتفاح، بينما يتعذب في قبره آدم سميث الذي هاجم في كل ما كتب هذه
الرأسمالية الطفيلية المستحظة برايته.

مايو 1995
كتاب جديد:
لناعوم تشومسكي

فليس هذا المنططف التاريخي الذي استولى فيه أقصى اليمين على مقاليد الحكم في أقوى بلد في العالم، فأنشأ أظهره وعيناه حتى في أبسط الحقوق الإنسانية، وصادر بطاقات الغذاء المجانية لأقوس الفقراء، وانقطع من ميزانيات غذاء أطفال المدارس، وانزعج المعونات من صغار فقراء الحوامل وكل ذلك ليزداد الأثارة في قصور ميامي وكاليفورنيا والريفيرا ثراء، ولترتفع ميزانيات البنتاجون ووكالة المخابرات المركزية.

وفي هذه الأيام التي تتمكنت فيها البنتاجون وأجهزة المخابرات هذه من اقتلاع أي سوت خارجي معارض، بالحرب السافرة حينا والتصفية الجسدية حينا آخر، وتدبير الانتقادات والتحركات الدينية من الدلائل لا ما إلى الشيخ عمر عبدالرحمن، ومن السين إلى الصهيونية.. واستطاعت أن تعين قادة أذنابها لها في أغلب بلدان العالم الثالث.

وفي هذا المناخ الفكرى الخبيث الذي دفع بعض قادة الفكر عندنا إلى مسالك كالهرود إلى "المعقول" و"المستن" و"نهاية الأيديولوجيات" بل ونهاية التاريخ والجذور والحلول ذاتية والإن جي أو... في مثل هذه الظروف، تفتقد الكلمة الشريفة ويفتقد بريق الحق ويفتقد الضوء الذي ينير الطريق إلى مستقبل مشرق للبشرية.
بين الحين والآخر يظهر بريق قلم حر جريء.

***

يكاد ناعوم تشومسكي Noam Chomsky: أن يكون أهم علماء اللغة في العصر الحديث. فقد أحدث ثورة هائلة في هذه العلوم وخاصة بإخضاع اللغة Generative Grammar بنظريته عن الإجراعية الخلاقة للكلمة، وله في دراساته على الفلسفة والفلسفة المبناة على دراساته في اللغة. وقد وصفته النيويوركر تايمز بأنه يكاد أن يكون أحد المفكرين الأحياء.

ولكن الأهم من ذلك كله أنه إنسان مثقف بمعنى الكلمة وله مواقفه الشريفة في كل القضايا الإنسانية: وعلم موقفه من القضية الفلسطينية يعد مثالا على ذلك. فهو رغم بعده عنه أحد أعداء الصهيونية ولكنه في ذلك العديد من المؤلفات. ولقد ساعدت القاهرة بلقاءه منذ عامين تقربا وآلمي محاضرة عن اللغة والسياسة واحترام العديد من المثقفين المصريين ولاحظ من جلسوا إليه هدوء نبرته وتواضعه الجميل ووجهه للبشرية.

يتنافس تشومسكي في كتابه الأخير «في حوار مع دافيد بارسانيان»، العديد من القضايا الساخنة التي يحاول بعض المفكرين أن يهيلوا عليها التراب، ولا يسمح ضيق المكان ينقل هذا الكتاب الرائع بأكمله، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

يقول تشومسكي:

عن اقتصادات العالم الجديد:

- يوجد الآن في بلدان العالم الثالث مجتمع ذو طابعين: طابع الشراء الفاحش والتفوز وطابع التعاسة واليأس، وقد تعمق هذا التقسيم بسياسات يملؤها

١٧٣
الغرب، فقد فرض سياسات السوق المفتوحة التي تؤدي إلى ازدياد ثراء الأثرياء، وفقاً للقرآن.

لقد خلقنا "عصرا استعماريا جديدا" بحكومة عالمية لها مؤسساتها مثل GATT والبنك الدولي وصندوق النقد، ولهما تشريعاً أقوى وأكثرها مثل الاتجاهات والṣبعة الكبار 7G ... إلخ. والشعوب عامة لا تعرف ما الذي يحدث بل ولا تعرف أنها لا تعرف وتشعر بأنه لا يوجد من أي شيء، وهكذا تصبح آليات الديمقراطية التي تحقق بها سادة العالم خالية من أي محتوى.

ليس هناك مفكر عاقل يظن أن الرأسمالية يمكن أن تدوم ولم يدر هذا الظن بخلد أحد منذ ستين أو سبعين عاما.

إن سياسات الاقتصادي في الولايات المتحدة رغم دعاوتنا عن السوق الحرة وأليات السوق هي خليط من الدعم والتدخل لمصلحة الأثرياء والأقوياء. فلذينا سياسة دعم ثابتة ولكنها متخلفة تحت رداء الأمن القومي تتمثل في البنتاغون الذي يسعى باستمرار ميزانياته توجيه الاقتصاد لمصلحة السادة ودعم من يريدون دعمه.

ولكن، حتى باستمرار هذه الآليات فإن الرأسمالية الجشعة المجنونة أيام ريجن قد أدت إلى خراب الاقتصاد الأمريكي. وقد اعترفت جريدة "الستريت" - أتت الصحافة المحافظة وتاييداً لريجن - بتحطم نظام التعليم في ولاية كاليفورنيا بسبب السياسات المجرمة التي أدت إلى اقتصاد جانب كبير من ميزانيات التنمية الاجتماعية لحساب برنامج حرب الكواكب.

فينا ألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية وثابراً تحت المعجزة الاقتصادية بتخطيط تام من الدولة: يكتفى أن نتذكر أن كوريا الجنوبية قد فرضت عقوبة
الإعنام على من يصدر النقد للخارج (قارن بمصر، ح. ص).

عن الجات:

لا يعلم أحد غير بعض المتخصصين ماذا يحدث في هذا المجال، وأحد الأشياء المهمة في هذه العملية هو ما يطلق عليه اسم "الملكية الفكرية". والخضض من هذا هو ضمان بقاء العلم والتكنولوجيا التي هي نتاج الفكر الإنساني عامة في أديان المؤسسات الضخمة، وهكنا، لن تستطيع بلد فقير مثل الهند أن تنتج أدوية رخيصة. أما الشركات الضخمة فإنها تعتمد أساسا في أغلب مراحلها على البحث العلمي الذي تنتجه الجامعات والمعاهد التي يصرف عليها ويديرها ويقوم بها أناس من كافة أنحاء العالم.

عن الغذاء والعالم الثالث والمغزاز الاقتصادية:

- يوفر البنك الدولي وصندوق النقد الدولي قروضا بشرح وص hoạch لدول الجنوب. إذ يجب عليهم أن يفتحوا أسواقهم ويسددوا ديونهم بالعملة الصعبة ويرفعوا كمية صادراتهم من القهوة واللحوم حتى تستمتع بشرب الكابويتشينو وأكل الهامبورجر، وذلك على حساب زراعاتها المحلية.

ولتأخذ بوليفيا كمثال: كانت هناك متاعب وذروت ضخمة، وتدخل الغرب. ذهب إلى هناك صندوق النقد بقواعده، وطالب بتثبيت العملة، وازداد الصادرات الزراعية، وتقييد إنتاج الحاجات المحلية، وتحتاج الخطة تم. انخفض العجز وثبتت العملة ولكن العسل كان يحتوي على الكثير من النبات: ازداد الفقر، ازداد نقص التغذية، وانهارت نظم التعليم، ولكن أخطر وأهم نتائج هذه السياسة هي الطريقة التي ثبتت العملة: فقد أصلحت الأحوال الاقتصادية برفع كمية الصادرات من الكوكا (المادة التي يصنع منها الكوكايين) والسرب واضح. فقد أغرقت أمريكا بوليفيا بالصادرات الزراعية
المدعومة، ولم يعد لفلاح البوليفي ما يستطيع أن يبيعه سوى الكوكا. وينعى الجانب الأكبر من أرباح الكوكا طبعًا إلى المافيا التي تحول أرباحها إلى بنوك الولايات المتحدة فتشد أزر الاقتصاد الأمريكي.

وهناك معجزة (2) اقتصادية أخرى في شيلي. فقد كانت نسبة الفقر في أيام اللينيندز الزعيم الاشتراكي المنتسب لا تزيد على 20 %، وبعد أن قتله انقلاب عسكري تدبير المخابرات المركزية عام 1973 ازداد الفقر بمعجزة اقتصادية أخرى إلى 60 %! وهذه هي معجزات صندوق النقد الدولي.

إن الزعم بأن الفقر والجوع ينتج عن تزايد السكان زعم كاذب، فبداية ليس هناك نقص في الغذاء بل هناك سوء في التوزيع. وعلى كل حال فإن الطريقة الوحيدة المجدي للحد من النمو السكاني هي التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

عن الأرض المختارة:

لقد كان للولايات المتحدة هدف واحد دائم من مفاوضات السلام المزعوم وهو تحويل التحالف الخفي بين إسرائيل والعائلات الدكشاوية العربية الحاكمة إلى تحالف ظاهر وقوي.. ويدبر أن هذا الهدف في طريقه إلى التحقق.

عن غاندي المقاومة السلبية والهند:

ليس هناك أدنى شك في أن الحكم الاستعماري كارثة على من يقع في يده، خذ الهند مثلاً: عندما وصل البريطانيون إلى البنغال، إحدى الولايات الهندية كانت هذه الولاية من أثري بلدان العالم، وقد وصفها أوائل المحاربين التجار البريطانيون بأنها جنة الله على الأرض. وقد أصبحت هذه الجنة الآن بنجلاديش وكلكنا! أكبر رمز الانحدار واليأس البشري. كانت المناطق الزراعية في
البنتاج تنتج أجود أنواع القطن وكانت لديهم صناعة متقدمة بمقاييس عصرهم. لقد بنى إحدى سفن الأسطول البريطاني أيام الحروب النابليونية على بد الصناعة الهندية. ويمكن لمحبي آدم سميث من أنصار الليبرالية أن يقرأوا ما كتبه عن هذه الجريمة. فقد تأثر أشد الآثام لما فعله مواطنوه، إذ حطموا الاقتصاد الزراعي والصناعي بل وحولوا المزارع إلى إنتاج الأفيون. السيلة التي فرضوا على الصين شراءها بحرب الأفCRM. وحطموا الصناعة الفاخرة صناعة النسيج وتحطم الاقتصاد الهندي.

لقد حطم الغرب أفريقيا حتى قبل الاستعمار باستحضا فلاد الرحب في مزارع أمريكا. وعند الاستيلاء على القارة فيما بعد حطموا ما بقي من الحضارات الأفريقية. ثم انتقلوا بعد ذلك إلى السيطرة بالعلاقات الاستعمارية الجديدة. Neocolonialism

وعن سياسة فرق تسد:
من الطبيعي أن يستعمل الحاكم سياسة فرق تسد. لقد كان 90% من القوات البريطانية التي استعملت في غزو الهند من القبائل الهندية. عندما استولت قوات الولايات المتحدة على الفلبين وقتل مئات ألف مواطن، كانت تستعين ببعض القبائل الفلبينية.

لأ أن روسيا قد نجحت في الاستيلاء على الولايات المتحدة لعمل رونالد ريجان وجورج بوش وباقي هذه العصابات مع القوات الغازية الروسية.
في كل مكان ذهب إليه الأوروبيون ارتفع مستوى العنف ويمكن أيضاً مراجعة آدم سميث في هذا الموضوع والسبب في ذلك أن للأوربيين تراثا لا يبارى في العنف.

١٧٧
عن الكلمة المتنوعة:
قام الدكتور فيسنت نافارو هوينكز والعامل في مجالات الصحة العامة بدراسات قرر فيها أن يقسم نتائجه حسب الوضع الطبقي، واكتشف أن أغلب الفروقات حتى بين الأجناس المختلفة ترجع إلى الوضع الطبقي والفرق بين العامل الأبيض والمدير الأبيض فرق مريع.
والبحث يلاسك مهم لتفهم الأحوال الصحية للشعب الأمريكي.
ولكن المجلات الطبية الأمريكية بجمعها رفضت نشره لوجود كلمة "طبقه" به. ثم قام نافارو بنشر البحث بعد ذلك في مجلة لانست البريطانية. كبرى المجلات الطبية. والسبب واضح، فمن المحرم في الولايات المتحدة التحدث عن "الطبقة" وغرض طبعا هو خلق صورة أننا جميعا كأفراد عائلة واحدة سعيدة. فنحن أمريكا ونحن نعمل سويًا لخدمتها. ففيما العمالة الطبية، والشركات الطبية والمديريون الطبيون، والموظفين الذين يعملون في خدمتنا.
ومن يقول غير ذلك يتهم بالمودة إلى الماركسية البغيضة.

***

هنا بعض ما قاله تشرشسكي في كتابه الأخير. إلى الأصدقاء المكافحين قديما والمشتاقين حديثا إلى ذهب الخليج أو حتى رمأل مارينا.

وإلى منظرينا الجدد الذين يتحدثون عن المستقبلات والطموح العالمي الجديد والسوق الشرق أوسطية وسقوط الاشتراكية ونهبة الماركسية وأفول الوطنية، إلخ.

أقدم لكم كتابا جديدا لمثقف شريف.

مايو 1995

178
مسألة منهج

خلال شهر أبريل، اشتعل فجأة حوار حار بين عالم الاجتماع الدكتور سعد الدين إبراهيم والكاتب الناشئ الأستاذ فهمي هودي، وكما يحدث دائما في مثل هذه الاستجابات الحارة بين كبار الكتباء، فقد انخفضت حرارة اللهجة فجأة ثم انطفأت نيران الحوار.

ولكن... بقي في صدر كاتب هذه السطور لهيب مشتعل.

***

يقول الأستاذ فهمي هودي في حواره مستندا إلى آيات من القرآن الكريم:

- إن الناس جميعا تربطهم وشجاعة الأخوة الإنسانية «يا أبها الناس اتقوا» RIDM الذي خلقكم من نفس واحدة.

- إن لكل إنسان كرامته بصرف النظر عن دينه أو عرقه «وقد كرمنا بنى آدم وحملناه في البر ورزقناه من الطيبات وفضلناه على كثير مما خلقنا تفضيلا».

- إن الاختلاف في اللمل والأعراق من سنن الله وعلى ذلك فإن للآخر شرعيه التي كفّه الله سبحانه وتعالى «ولشراء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين».

- إن دستور العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو أن الفضل والخير مطلوبان من المسلم للناس كافه، يستوى في ذلك من آمن بالإسلام ومن كفر به إلا إذا كانوا يقاتلونه في دينه ويخرجهن من داره، أو يظهرون على إخراجه.

وهذا كله كلام جميل جدا... ولكن.
ولكن، وكما يعلم الأستاذ فهمي هويدى، وكما يعلم الجميع، فإن هناك دعاة آخرين كشريين، لهم نفس مرجعية الأستاذ فهمي هويدى، ولهم نفس منهج، ولهم نفس أهدافه، يقولون غير ذلك تماما: ففي كاسيتات منتشرة في الأسواق، وفي كتابات تباع على الأرصفة في الشوارع، وفي أجهزة الإعلام الرسمية، وفي العديد من المساجد، وفي المدارس الحكومية، يوصف الأقباط بأنهم مشتركون وكفرة، ويوصف رجال الدين المسيحي بأنهم زادة، ويطلب المسلم باللأ يهئة أخاه القيطي بالأعبيد، ولا يضع يده في يده، ولا يبادله التحية، وهم في دعاويهم هذه يكررون تفسيراتهم الخاصة لآيات أخرى كريمة أنقلها عن كتبهم، ومنها: "من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه", "فإن لقيتم الذين كفروا فضربوا الرقاب", "فإن كشيروا من الأحبار والرهبان ليأكلوا أموال الناس بالباطل", فإن المسيحين أعداء للفاتحين تغض عليهم الجزية فيعطونها "عن يد وهم صاغرون" ويرفض عليهم الجهاد كالكفار والمنافقين.

بل ومنهم من اتخذ مما ورد في كتاب السيرة المعتمدة أمثلة، مثل قتل الشاعر كعب بن الأشرف وغيره، مبرراً للياء الذي اجتاح بلدنا وأدأ إلى قتل فلاحين في مزارعهم، وطبيب في عيادته، وتجار في محالهم لمجرد أنهم أقباط ثم امتد إلى قتل السواح، وطيف كامل من المواطنين بداية من الخفرا، وحتى رئيس الوزراء مروراً بمشقفين وإعلاميين... ونجيب محفوظ "لأني فاسق؟!".

وأود قبل مناقشة هذا التناقش أن أوضح: أولاً: إنني لا أرى الأقباط من دورهم فيما يحدث الآن. ولكن هذا موضوع 180.
آخر يستحق المناقشة في موضع آخر، فنحن لا نناقش هنا مشكلة اجتماعية
أخلاقية، وإنما نناقش مشكلة سياسية، فما هو موجود ليس مجرد انحراف
أخلاقي اجتماعي، إنما هو في النهاية طموح سياسي يستغفل ظروف اقتصادية
اجتماعية.

ثانياً: إنه لي الحق (رغم أنني قبطي)، كأي مواطن، في مناقشة التفسيرات
التي يطلقها بعض المتبنون للنصوص الإسلامية، فهم يخرجون بها عن مفهوم
المبدأ، إلى سن النظم والقوانين التي تسري على جميع المواطنين.

ثالثاً: إنني لا أنطق في حديثي هذا دفاعا عن الأقباط، وإنما أكتب أنشغالا
بمستقبل البلد بأجمعه، مسلمين وأقباط ويهود وغيرهم إن وجد، بكافة ملتهم
ونحلهم.

ورغم جزئية الحوار (حول الملل والنحل)، فإنه يظهر خواصا عامة عديدة
للمنهج الذي يمثله الأستاذ فهمي شريف ويثير النقاط الآتية:

أولاً: لماذا لم يشر الأستاذ في حواره إلى التفسيرات الأخرى المستخدمة من
نفس مرجعيته ولها نفس منهجه؟ لابد أن الأستاذ فهمي شريف يعلم بمدى
انتشار ونفوذ التفسيرات الأخرى، ولا بد أنه استمع إلى رأى طفل من أقاربه
فيما تعلمه من مدرس الدين عن الأقباط، ولا بد أنه سمع ماسبق ذكره من
كاسيات، أو على الأقل سمع عنها.

وتجاهل أجزاء من الحقيقة، وإضاعة الأثواب حول جزء منها، هي قدرة سيئة
في الحوار، بل قد تبدو مخالفة لأهم المبادئ في كافة الأديان وهو الصدق،
والحقائق لا تتماشى مع التقسيم الاختياري والصدق يعني الحق كل الحق.
ولا يعني من الوارد في هذا المجال أن تذكر إصرار الأستاذ فهمي شريف على
أنه لا يعتبر برأيته وأقلية، وإنه أولاً من استنكر تعبير ذي، في كتاباته

181
في السبعينيات، انتظاراً أنه في البيان الذي نشره مع الدكتور كمال أبو النجاح من مقترحاته لأسلوب حكم جديد قد نص على أن يكون رئيس الجمهورية من دين الأغلبية. وأنا أعلم أن الدستور الحالي ينص على ذلك، ولكنه دستور وضع قابل للتحديث مع التقدم والتطور، أما الدستور الأستاذ فهمي هو يرى غير قابل للتعديل إلى الأبد إلا فيما يتعلق بباقي وظائف الدولة استناداً إلى نفس المنهج الذي ينص على عدم شرعية ولاية غير المسلمين على المسلمين.

ثانياً: يفترض مما ورد في الحوار أن الأستاذ فهمي هو الذي له موقفه الخاص المختلف اختلافاً تاماً عن هذه التفسيرات التي تدعو للمقاطعة وقطع الرقاب، فهل لي أن أرجو أن يعود إلى ما كتب في أعقابه في صفحته كل يوم ثلاثاء، وفي غيرها من الصحف ليكشف لنا عن مجهوده في محاورة هذه التفسيرات؟ وليس لم لي أن أسأل أن هو أكثر إضراراً بالدين وبالوطن: أولئك الذين يتنارون بالتكتيك والقتل أم أولئك الذين ينادون بالدراسة العقلانية للدين أمثال طه حسين وفرج فوهة وحسين أمين وسعید العشماوى ونصر حامد أبو زيد وصحيح منصور؟

أريد أن أسأل من كان عوناً لأحداء أعداء مصر عليها من تأييد الملك فاروق إلى مقارنة الطاغية إسماعيل صدقى بالنبي إسماعيل أيام مشروع معاهدة صدقى / بيفين إلى تحطيم حركات المقاومة للمسادات تمييزاً لكابتن ديفيد؟ أين عنف قلبه وقوة منطقته مع هؤلاء المشوهين للدين؟ هل لي في هذا المجال أن أذكر أنه ما كنت في محاولة قتل نجيب محفوظ كان في حجم طابع بريد كبير.

إن الكتابة موقف واختيار ومستندة.

ثالثاً: يحتضن من اختلاف المواقف (ظاهرياً على الأقل) رغم اتفاق

١٨٢
المرجعية والأهداف، أن هذا المنهج يحتوي على خطأ كبير وخطر عظيم، وينبع
هذا الخطأ من أن الكتب الدينية تتوزع بمبادئ عامة للمبادئ التي كل مكان وزمان،
وتوزع كذلك في وقت ما وفي مكان وزمان، وتوزع كذلك في وقت ما وفي مكان
ما لشعب ما لتنظيم معيشة هذا الشعب، وهي إلى جانب هذا كما وصفها بحق
على بن أبي طالب رضي الله عنه «حصالة أوجه». ولعله من الدروس المهمة في
بدء التاريخ الإسلامي أن يصبح على بن أبي طالب رضي الله عنه رغم قيمته
الإنسانية أولوية ضاحية مهمة لتفسيرات القرآن الكريم.
فالمنهج في رأينا خاطئ ومحاولة استخراج أساليب تفصيلية للحكم،
والطب والعدل، والبحث العلمي، ومبادئ التعامل مع أهل اليابان والصين، من
الكتب الدينية ومن آراء وصحاوي السلف الصالح، كسل وتقاعس عن فهم
المفهوم الحقيقي للمدینة كقوة دافعة لإسعاد البشر ورفاهيتهم.
والمنهج خطر لأنه مع حب الناس لديهم يمكن تسخير هذا المنهج لخداعهم
ولا عجب أن كان هذا الأسلوب مصدر الكثير من المتاعب التي يصدرها رجال
مخابر الدول الغنية للدول الفقيرة بداية من ثورة الآيات ضد مصدر التي
ديها كيرميت روزفلت في إيران مرورا بالدلائل لاما نهاية بما تفعله الفاتيكان
في جميع أرجاء العالم.
***
عزيز الأستاذ فهمي هيدي
كتبت ما كتبته لشعررني بانشغالك على وطنك، لقد أضعنا كثيرا من الطاقة
والوقت، والزمن لا يرحم والفجوة بيننا وبين باقي العالم تنعكس
أتم يحن الأوان لكي نستيقظ ونلحن بالرب لدخول القرن الحادي
 والعشرين؟

يونية 1995

١٨٣
إمبراطورية الشر
مذكرة ناوم تشومسكى للمؤتمر الدولي
لفكر والإبداع

بلغنا من السن ما يتعدى ويتحدث التعريفات المعروفة: مرنبا بالكهولة (40 سنة) وخرجنا عن دائرة الشيخوخة (50 - 60 سنة) ولم يبق لنا وقد قعدت بنا الهمة عن الاهتمام بالأمور المهمة إلا أن نتأمل فيما كان وفيما هو كائن. والحقيق الحق أقول لكم أنى قد صرحت على قناعة عميقه بأن ما عشته من عمرى قد عاصرت فيه مرحلة متقدمة جدا وقاسية جدا من الاستعمار الذي تقوده طبقة ارسطولية شرسة في بعض البلاد المتقدمة التي يطلق عليها الاقتصاديون لقب «دول المركز» وأن قائدة هذه المجموعة خلال الخمسين سنة الماضية كان الرأسمالية الأمريكية، وأن كل ما نراه من اجتماعات وسياسات وحروب وأعمال تدور حول هذه العملية القاسية التي تمكن بها الطبقة الرأسمالية في هذه البلاد من حل مشاكلها الداخلية بمواطنيها. نعم، كل ما رأينا وهزاه الثاني: الحرب الباردة، الحروب الساخنة، الجات، البابا، البنك الدولي، الشيخ عمر عبد الرحمن، جمال عبد الناصر، سوكرنور، المجاعات، السادات، موبوتو... كل هذه أمور ثانية تدور كلها ولا تنهر إلا في ذلك الصراع الأساسي وهو إدارة أمور العالم بما يسمح لهذه الطبقة بالاستمرار.

184
فيما تتمتع به من ثراء فاحش حتى لو اقتضى ذلك قتل آخر عربي أو أفريقى أو أمريكي جنوبى. إنّه.
لقد نبتت بذرة الفكرة لدى عند قراءة لكتاب نكروما الوافر عن الاستعمار الحديثي.
وفقه يصف نكروما أحوال بلاده (غانا) Neo-colonialism
فيقول إنه كان يستبدل عدة معيينًا من جوليات الكاكاو بسيرة جب، فلما بذل
مجهودًا جبارًا لكي تتمكن غانا من رفع إنتاجها من الكاكاو 50%.. ارتفع
ثم الجيب ليصبح ضعف ما كان عليه.. وازدادت غانا فقرًا.
وأهمية هذه القناعة في نظرتي أنها تقدم الطريق الذي لا سبيل سوّاه للتخلص
من هذا الوضع لخدمة أولادنا وأهالينا وشعوبنا في مواجهة هذا الوحش الجشع،
وسوف أعود إليه فيما بعد.
وقد بلوّر هذا الرأي وزاده صلاة أننى قد كلفت من «المؤتمر الدولي للفكر
والإبداع» الذي انعقد في القاهرة عام 1993 بترجمة المذكرة المقدمة إليه من
تائوم تشومسكي.
والحق أنه لو كانت الأمرور بيدي لكلفت كل إنسان من سكان عالم الجنوب
بقراءة متأنية دقيقة لهذه المذكرة الرائعة، وسأتلأل في حدود إمكان المكان أن
أورد قليلاً من كثير مما قاله.
لماذا يقول تشومسكي في مذكرته؟
يقول تشومسكي عن النظام العالمي الجديد:
«إن حكام هذا النظام يتمسكون بفكرة عبر عنها ونستون تشرشل مقولته: إن
حكم العالم ينبغي أن يترك في أيدي الدول الغنية وإلى رجال أثرياء شعبانين،
وليس إلى الدول المعدمة التي تبحث عن اللقبة وتهدد الهدوء». 185
ولقد نقلت وزارة الحرب الأمريكية، حتى قبل مقالة تشرشل، رسالة على لسان هنري ستيمسون لسان هنرى ستيمسون في يوليو 1945 تنبه فيها إلى ارتفاع مقدمي يعكس رغبة الرجل العادي في الارتفاع إلى أفق أعلى وأوسع. وكان هذا المجال هو مركز إحساس العرب بتهديد السوفيت للنظام بعد الحرب.

وماذا يقول تشومسكي عن الحرب الباردة:

«إن دراسة لوزارة الحرب الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة لا تستبعد أن تتجاوز روسيا فكرة تأييد المد المتزايد لأعمال الرجل العادي، وهذا فإنها تفرض على الولايات المتحدة أن تحيط الاتحاد السوفيتي بقوات حرية موجهة إلى داخل أرضه؛ إن أعمال الرجل العادي تشكل خطورة شديدة على الولايات المتحدة.»

ولكن التهديد لم يتوقف، فقد اشتكى الرئيس أيزنهاور بعد عقد من الزمان بأن الشيوعيين «هم جاذبة مباشرة للجماهير» كما اشتكى وزير خارجيته، جون فوستر دالاس عن «مقدرتهم على السيطرة على الحركات الشعبية بما لا نستطيعه نحن».

ويقول تشومسكي عن رأى الرأسمالية الأمريكية في جرائم الحكام:

«لم يكن الاهتمام الأساسي موجهًا إلى جرائم ستالين الفادحة، بل كان موجهًا أساسًا إلى النجاح في مجال التنمية والثورة الفلسفية البروليتارية» للرجل العادي في الشعوب المستعمرة في كل مكان. لم تكن المشاكلة إذن في الجرائم إنما كانت في الخروج عن الطاعة. ويشير هذا بوضح مرة أخرى في حالة صدام حسين الذي كان صديقا محببا وشريكًا.

186
نجاريا للولايات المتحدة خلال فترة ارتكب فيها أغلب الجرائم، وفي عام 1989 تدخل البيت الأبيض مباشرة لضمان حصول صدام حسين على مليار دولار. وكان السبب هو أن صدام و«هام جدا» لمصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وأنه ذو نفوذ في عملية السلام، وكان له «مركز هام في ضمان استقرار المنطقة». وكما كان الحال مع ستالين، لم تكن لجرائم صدام حسين أي اعتبار حتى ارتكب جريمة الخروج عن الطاعة.

ويتحدث تشومسكي عن الدول التي تحاول السير في طريق مستقل فيقول:
«وأبا كان اللون السياسي فالأمير في طريق مستقل مرغوض وأي نجاح يمكن أن يصبح مثالا مرغوض أكثر وأكثر (مثل عدوان أرمينيا). ويعتبر من يفعل ذلك مثل التفاحة العثنة التي تفسد باقي المحصول، فعندما قلبت إدارة المخابرات المركزية النظام الديموقراطي الرأسمالي في جواتيمالا عام 1945، جاء في تقرير لوزارة الخارجية أن جواتيمالا قد أصبحت تمثل تهديدا متزايدا للاستقرار في هندوراس والسلفادور، فقد أصبح إصلاحها الزراعي يمثل سلاحا دعائيًا خطيرا وأصبح برنامجها الاجتماعي في مساعدة العمال والفلاحين صراعهم ضد الشركات الأجنبية» ومشابهة خاصة لجياب أنهم من شعوب أمريكا الوسطى».

هذه هي المميزات المهمة للنظام العالمي قديما وحديثيا مسجلا بالوثائق في وزارة الخارجية الأمريكية.

ويقول تشومسكي عن الشرق الأوسط:
«تقول وثائق البنتاجون في توجيه عام 1992 "أن الشرق الأوسط يمثل اهتماما رئيسينا لنا في هذه المنطقة" هدفنا أساسا هو أن تكون القوة الرئيسية
المهيمنة، وأن نحتفظ بحقوقنا وحقوق الغرب في بترول المنطقة.
وسرد تشومسكي، بتفاصيل دقيقة وصفحات عديدة لا مكان لها هنا، علاقة الولايات المتحدة بمكيا منذ الأيام الجيفرسون حتى الآن يوضح مدى إجرام هذه السياسة. ثم يعود إلى العلاقات مع الاتحاد السوفيتي قليلاً:
«لقد كانت مقدرة الاتحاد السوفيتي على إعطاء المعرفة للبلاد المستهدفة خطيرة التأثير، فقد قيدت من مقدرة الولايات المتحدة على الحركة بسهولة. ولقد بلغ الاتحاد السوفيتي أوج قوته عام 1950، ولكنه كان دائماً متخلفاً كثيراً عن الغرب. لقد أظهرت أزمة الصواريخ في كوبا ضعف تسليحه، مما دفع القادة السوفيتي إلى إنفاق الكثير على التسليح حتى عام 1971، وقد توقف الاقتصاد عن النمو وأصبح الحكم الأتوقراطي غير قادر على التحكم في المعارضة الداخلية، كما أضطر الاتحاد السوفيتي بشدة من تحطيم دول الجنوب (وكذلك بالتهديد بحرب الكواكب س.ح.ص.)، وهكذا انتصرت دول المركز القوية الغنية في الحرب الباردة وستعود أغلب بلاد روسيا سوفيتية سابقا إلى دورها القديم كدولة من بلدان العالم الغربي (عالم الغرب).»
أما عن الملاحقة الدقيقة لنظام العالم الجديد، فيقول تشومسكي:
«يأتي الآن استعمال القوة في الهيمنة على عالم الجنوب أخيراً في الأهمية، فالأسلحة الاقتصادية أكثر كفاءة، ويمكن اكتشاف بعض هذه الآليات في اتفاقية الجات Gatt مثل ضمانات حقوق الملكية الفكرية (مثل برنامج الكمييترات) ورفع القيود على تصدير الخدمات والاستثمار مما سيقلل من قيمة برامج التنمية في عالمن الجنوب. وسوف يؤدي كل هذا إلى تحويل دور...»
حكومات عالم الجنوب إلى وظيفة رجل شرطة، وظيفته التحكم في الطبقات العاملة والشعوب العاطلة.

وهناك كما نعرف وسائل معينة لتكتل الشرطة والقوة. لذا فعلياً ألا نتفاهم باستمرار تخلف عالم الجنوب عن عالم الشمال؛ إن إحصائيات الأمم المتحدة توضح أن نسبة متوسط دخل الفرد في أفريقيا إلى دخل الفرد في البلاد الغنية قد هبطت بحوالي 50% خلال ربع قرن، وكذلك ولنفس الأسباب ففي المجتمعات الغنية نفسها ازداد ثراء الأثرياء وفقر الفقراء».

لقد حدثنا رجاء عن امبراطورية الشر، وحدثنا جورج أورويل عن عالم الرعب في «مزرعة الحيوانات» و «1984» ولكنهم خدعنا. إن امبراطورية الشر أمانا الآن واضحة لا ريب فيها، تتسبب في تعاسة لأحد لهنات الملايين من البشر في أفريقيا وأمريكا الجنوبية، وقد بنى رخاها عند نشأتها على تحكيم شعوب وحضارات من أعظم الشعوب والحضارات: الهنود الحمر في أمريكا والأفارقة في أفريقيا، ههد الإنسانية. وكل هذا من أجل ترف وثراء حفنة من المليارات الذين يحكمون العالم من يخوتهما في الريفيرا وقصورهم في سويسرا. هل هناك شر أعظم من هذا؟ هل يمكن أن يبقى هذا النظام العفن القذر؟

ويقول تشومسكي في هذا المجال:

مع أن فرص الفوز والديمقراطية تكاد تكون مختلطة، هناك بعض الأمل.

وهناك اتجاهات عديدة لقد يكون أهمها هو التغيير الداخلي في بلدان عالم الجنوب الذي يؤدي إلى ديمقراطية حقيقية، وإلى تحسين ظروف الحياة، وإلى الهيمنة الشعبية على رأس المال للتنمية البناءة ويربط كل هذا طبعا بالحاجة
إلى تعازن الجنوب مع الجنوب في مواجهة الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المشتركة. ولكن العامل الأساسي قد يكمن في التغييرات الداخلية في "دول المركز" الغنية، وقد حدثت بالفعل تغييرات في كل بلاد الشمال خلال الثلاثين عاما الماضية.

ويقول أيضاً:

على الجنوب التحرك نحو علاقات مسائية متبادلة مع الحركات التحررية في بلدان الشمال، وهذا هو الأمل الوحيد للجانب الأكبر من البشرية، بل ولبقاء الجنس البشري خصوصاً في عصر مشاكل البيئة التي لن يمكن حلها بوسائل تهدف إلى مكاسب وثراء عاجل وتحت الظروف وسيلة ليست هدفاً.

هل سنعيش نرى اليوم الذي يتخلص فيه العالم من امبراطورية الشرق؟

يوليو 1995
سالم
(يحدث في مصر الآن
في مشارف القرن الواحد والعشرين)

يطلق على عدد من المدن في الولايات المتحدة اسم "سالم" المستمد من جنوب عربة بمعنى السلام أو السلام. وفي إحدى هذه المدن وقعت في الفترة بين مارس وسبتمبر عام 1892 أحداث sachusetts (سوداء، تذكرنا بعض مانحن فيه الآن في مصر. فقد ظهرت على فتاتين من أهل بيت القس صمويل هاريس بعض الأعراض النفسية الغريبة. وادعت الفتاتان أن هذه الأعراض نتجت عن جلسات للسحر تتعامل مع الجن والشياطين. وتداعت أسباب مالية واجتماعية وسياسية فبدأت عمليات تحقيق واسعة النطاق في أول مارس. وفي منتصف مايو كان في السجون مائتا شخص. وفي أول يونيو أديت أول ضحية "السيدة بريدجيت بيشرب" وبحق 24 سبتمبر من نفس العام كانت المحكمة المشككة خصصا لهذه العملية قد أدانت مائة شخص.

نفذ في اثنين وثلاثين منهم حكم الإعدام شتقا. ماعدا السيده جيلز كوري، فنفذ فيها حكم الإعدام سحقا بعين حجرين. وخلال المحاكمة اعترف خمسون من المتهمين بالتهبنة. وبعد أن هدأت الاهستيريا الجماعية اعترف المحلفون بالخطأ، واعترف الشهود ومنهم أهم قسيس بالمدينة الصغيرة (القس صمويل سيوال) بالكذب في الشهادة. وفي عام 1717 حكمت المحاكم لورثة...
المتهمين بتعويضات مناسبة.
لم تكن هذه أول مرة ولا آخر مرة تستغل فيها قوى الشر (المحفظة تحت عباءة الأديان) الجهل والدجل في قتل الأبرياء والشرفاء. فقد حكمت محاكم التفتيش في أوروبا أيام عصر الظلمات بين القرن السابع والقرن السابع عشر على عشرات الألاف من أشر من خدم الإنسانية من العلماء صانعي الحضارة الأوروبية التي مازالت الدول المتقدمة تنعم بها حتى الآن. فاتهمت الكنيسة والدولة كسر بالسحر واضطرت للهرب بها إلى المجهر، واتهمت جاليليو بالكفر واضطرت للعَتِرات أن نظرياته خطا ففي خطا، بل واستمرت الكنيسة في غيابها حتى عام 1983 عندما تكرمت وبدأت في التفكير في إلغاء عقوباتها عليه وانتهت إلى الاعتراف عما فعلته.
وفي أيام الخليفة المتوكل، اتهم بالكفر الكثيدي (1870 - 1873) العالم والفيلسوف وصاحب النظريات العديدة في الرياضة والفيزياء والموسيقى والمعروف بفيلسوف العرب وحكم عليه بخمسين جلدة أمام جمهرة كبيرة من الشعب كانت تهمل فرحًا بكل جلدة، ولم يكن الرازي (865 - 925) أشد حظًا، فقد كان هذا العالم الجليل أبو الطب منارة من منارات العلم في بغداد، وقد كُوِّف على أعماله بأن حكم عليه أحد الأمراء من أفراد أسرة المنصور بأن يضرب على أم رأسه بكتابه حتى تتحطم الرأس أو الكتاب، وفقد الرازي نظره في هذه العملية.
وقبل هؤلاء جميعًا لقيت أهم علماء الرياضة في مكتبة الإسكندرية هيقباشيا حتفًا عندما حرض بابا الإسكندرية في ذلك الوقت (كيرلس الأول)، الجماهير على تزويرها وانتزاع لحمها من عظمها. ونصب كيرلس بعد
وفاته قديما.

***

يقول عالم الفيزياء محمد عبدالله السلام: العالم المسلم الوحيد الحائز على جائزة نوبل في العلوم في تقديمه للكتاب الرائع "الإسلام والعلم" (1) إن الأصولية الدينية وروح التفاؤل تمثل أهم أساليب وأد العلم في العالم الإسلامي.

ويقول عبدالله السلام في نص التقديم: "إن تحديم القوى السياسية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية في البلاد الإسلامية قد نتج عن شهر سلاح التكفير، فخلال 130 سنة تحولت أقلاع القضاة إلى سويس مشهورة قتلت العديد من أحباء الله.

ويقول عبدالله السلام عن طائفة من مدعى الفقه: "إنهم رجال يفتقدون أي ادعاءات روحية ويزعمون أنهم يفسرون آيات القرآن الكريم ويصدرون الفتوى بالتكفير، وهو شيء لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ويتبرعون بآرائهم في السياسة والاقتصاد والقانون.

ويقول عبدالله السلام: "إنه في معظم البلاد الإسلامية الآن قد تكونت طبقة من شبه الأميين أدوا لأنفسهم صفة الدعاء بدون معرفة حتى بمبادئ ديناتهم السمحاء العظمى".

***

وقائع التاريخ واضحة لا ريب فيها، ففي عصر الظلمات في أوروبا، ازدهرت العلم وانتشر الاجتهاد في العالم الإسلامي، فمن النصف الثاني من القرن الثامن إلى نهاية القرن الحادي عشر كانت اللغة العربية هي لغة العلم والتقدم.
وقد العلماء المسلمون مساهمات مهمة للعلم خصوصاً في الرياضة والطب.
وكان الحكام في ذلك الوقت يتباهون بمنير في بلطلهم من العلماء المجتهدين، ودفعت روح الحرية والاستنارة العلماء من المسلمين والمسيحيين واليهود للعمل جنباً إلى جنب في بلاط الملوك والأمراء في إسهام البشرية.
وقد كان هذا يحدث في الوقت الذي حكمته فيه الكنيسة أوروبا بيد حديثة وأرسلت آلاف من المشتغلين بالعلم إلى المحاكم وكان المدانون يعذبون وتعرّف بطولهم وتربي أرجلهم بالخيل ليمنعوا. ولقد استنتج الإرشيبشوب أوشر من دراساته للإنجيل أن العالم قد بدأ في التاسعة Archbishop Ussher صباح يوم الأحد 23 أكتوبر عام 4000 قبل الميلاد بعد أعوام عديدة من وفاة العالم ويكليف Wicliffe الذي أثبت بدراسات عن الحفريات والجيولوجيا أن العالم لا يمكن أن يقل عمره عن مائة ألف عام، فحكمت الكنيسة بفتح قبر العالم وإخراج عظامه وطحنه ورميها في البحر حتى لا تلوث الأرض بقنايرها.
وقد انتهى ازدهار الحضارة والعلم واجتهاد الإسلاميين على يد أمثال هؤلاء من قنبل العلماء والمجتهدين، وانتقل ابن رشد إلى أوروبا وبقى للمسلمين الغزالي وابن تيمية، فارتقت أوروبا بابن رشد وهبنا إلى الحضيض بالغزالي وابن تيمية.

***
بعد فترة استنارة قصيرة صاحبت حركات الاستقلال هبت علينا في مصر رياح مسمومة زرعتها مخابرات الرأسمالية الغربية في باكستان وأفغانستان ومولتها شركة قناة السويس الفرنسية في الإسماعيلية. وبلغت تلك الرياح
المسمومة ذروتها بإعطاءهم الضوء الأخضر أيام السادات لضرب القوى الوطنية والناصرية واليسارية إعداداً لكابب ديفيد. لكن أليس العجب العجاب أن حكوماتنا مازالت حتى بعد مقتل السادات مستمرة في إشعال هذه النيران المسمومة في تليفزيونها وجرائها ومجلاتها ومدارسها؟ هل هو مطلب معتقد جداً أن نطلب بأن يعطى المتدينون المستبررون أمثال سعيد العشماوى وحسن أمين وأحمد عبد المعطي حجازى ونصر حامد أبو زيد وقتاً مماثلاً لعشر ما أعطى لأعداء العقل والاجتهاد للدفاع عن عقلنا. ألا يرى رجال الحكم العلاقة بين عمليات الاعتداء على رئيس الجمهورية وعلى رئيس الوزراء وعلى نجيب محفوظ وعلى فرج فودة وعلى نصر حامد أبو زيد؟

* Islam and Science by Pervez Hoodbhoy.  
Foreword by Mohammed Abdus Salam  
(73)

يوميات

طلب رئيس تحرير المجلة ممن بالغرفة الانصرف مع «سحب» الباب خلفهم. وقفت أمامه مرتبكة، نظر إلى من فوق نظارته السميكة، على وجهه مزيج من الألم والتهجج. قال لي «لم أفهم كلمة واحدة مما كتبت». دار بعد ذلك حوار عبّشى يذكر بيبسيت وابونسكي. انهارت وتحطمت أول محاولته لي للارتقاء إلى مستوى «كتاب اليومنيات».

هل أطبع من السيد الأستاذ رئيس تحرير «اليسار» أن يفك عقليّته وأن يسمح لي بأن أمارس، ولو لمرة واحدة، في حياتي؟ كتابة يوميات؟

***

السبت: بوميرانج

يستعمل سكان أستراليا الأصليين آلة Aborigines للصيد تدعى اليومنيات. وتتميز هذه الآلة بأنها إذا لم تستطع هدفها تعود إلى من قذفها، بل وقد تستطيع بضعة قيود رفعت الناطقون بالإنجليزية الفعلبالإنجليزية الفعل To boomerang فعل ما على صاحبه.

يذكرني بهذا الفعل (To boomerang) ما يفعله الإعلام الرسمي المصري بمهرجاناته واحتفالاته الأخيرة بالبالغ فيها.

الأحد: الحكم

لست من رجال القانون لكني أفتى في حكم المحكمة لفصل الدكتور نصر عن
زوجته الدكتورة ابتهال ولكنني، وبكل تواضع وبكل احترام، ومع الأخذ في الاعتبار اللازم للقانون رقم 92، ومع رهبتى الشديدة من قضايا الحسبة، ومع ملاحظة أن بعض الناس يشعرون في ذمها، وهي درجة أكبر من العبيد وأقل من المواطنة، ولذا فبأنى لى بعض الحقوق ولكن.. مع كل هذه الاعتبارات لا أستطيع أن أخفى ارتباطي إزاء بعض النقاط التي لا أفهمها في هذه القضية.

فمثلاً: كيف ينفذ هذا الحكم؟ إلى من ستذهب د. ابتهال؟ هل تنصب لها خيمةً؟ هل تذهب إلى شيخ القبلة؟ هل تضعها المحكمة في كفنها تصرف عليها وتقيم بأورها؟ أم يصرف عليها من بيت المال؟ هل يضعها أمير جماعة المنطقة تحت رعاية؟

ومثلاً: لو طبقنا نفس ما طبقته المحكمة من منطق هل يبقى للمحكمة أساس شرعى؟ هل يمكن لقاضي يتقاضي مرتبة من دولة مدنية أن تكون له شرعية بهذا المنطق؟ هل سيمكن إقامة قضايا حسبى على كل قضاة مصر؟

ومثلاً: أن يصبح هذا الحكم مرجعاً لآلاف الأحكام على القادة والسياسيين والكتاب والثقفين والأدب؟

ومثلاً: ألا يمكن إساءة استعمال هذا الحكم من بعض السيدات للخلع من أزواجهن بتهمهم بالكفر بطريقة أو بأخرى؟

لعل هذا الحكم يذكر قادتنا بتخلفهم في مهارة الفكر المتخلف، ولعله ينتهج إلى أن ما نراه من إرهاب يمثل قمع جبل التلف المتخفى تحت الماء والذي يضم ملابين (نعم ملابين) من البسطاء المخدوعين العاملين في قطاعات الدولة المختلفة ضمن قصص وزارات التعليم والإعلام (الإرشاد القومي سابقاً) في إعدادهم للقرن الحادي والعشرين.

١٩٧
الاثنين : منطق

يوم الاثنين عيد لي، ففيه أقرأ المجلات الأسبوعية المفضلة لدي.

في مقال للأستاذ سعد الدين وهبة في "العربي" يقول إنه شاهد في شريط تلفزيوني حواراً اشترك فيه الداعية الكبير الشيخ مستولي الشعراوي، وأن فضيلة الشيخ قد طلب من فتاة مصرية أن تسأل المذيعة الفرنسية عن الاسم الذي كان يطلق على التليفزيون قبل اختراعه. فقالت الفتاة: إنه لم يكن له اسم، فرد الشيخ بما معناه أن الموجود لا اسم له، وبالتالي فإن من له اسم فهو موجود، والله سبحانه وتعالى له اسم فهو موجود.. وكوبر الحاضرون.

والله سبحانه وتعالى أعظم وأجح من أن يثبت وجوده بمنطق مغلوب، فهو في غنى عن ذلك. وما قاله فضيلة الشيخ بدرس للطلبة الصغار كمثال للمنطق المغلوب. وليس هذا مكان لدرس في المنطق، ولكن يكفي أن نقول إنه مثل هذا المنطق يمكن إثبات وجود أوزوريس وحورس وحاتور والشامان الأكرع والعثاء.

والخطأ في المنطق من شخص عادي خطأ صغير بدلاً على البساطة، ولكن الخطأ من شخصية أعطها الإعلام المصري هذا القدر من التوجهية هو خطأ على عقل الأمة. فالشيخ قدرة، وما يستعمله من منطق يعتمد بدلاً الناس، وانتشار استعمال المنطق المغلوب خطأ خطير يعزل وحدة الأمة.

وليس هذه أول مرة يجابب التوفيق فيها فضيلة الشيخ في تصرفه كقائد.

فقد نشر فضيلته قصيدة طويلة يضع فيها عبد الناصر عند وفاته في مرتبة قريبة من الأثنيا. ثم قال بعد ذلك بسنوات إنه سجد للله شكرًا في عام 1977 لهزيمة مصر لأنها استخلصت من الطاغية. وقد استمر مرارًا بأنه منذ سنين

198
طويلة لم يقرأ كتابًا سوى القرآن الكريم.
وأنا أعلم أن هذه الهفوات لن تؤثر في نجومية الشيخ الشعراوي الكاسحة
ومغناطيسيته الجذابة التي تؤثر في الملائين من البسطاء. ولهذا، نحن لا نملك رد الفضيحة. وإنما نسأل الله اللطف فيه، نرجو من فضيلة الشيخ بعض الرحمة بعقوبة هؤلاء الناس.

الثلاثاء: ابتداء لعل من أخطر ما ابتليت به شعوب العالم الثالث الفقير هو ظهور طائفة من الكسانر الذين يلجأون إلى الدجل وابتزاز مشاعر الجماهير الدينية للهروب من القبود الصارمة للمنهج العلمي السليم. وقد انتشر هذا النوع في فترات الردة في العديد من بلاد العالم. ومن أمثلة ذلك ما حدث في باكستان أيام حكم ضياء الحق الذي استغل تعاليم المودودي في توظيف أواصر حكمه الغاشم. فقد انتشر في ذلك الوقت الدجل والنصب باللاهوتيات على الأديان العظيمة، فظهرت في أقسام الفيزياء في الجامعات وحدات تطوير الطاقة من الجين، واستخرج تكوين الذرة من كتب التراث، وصدرت تعليمات من القيادات بإختصار تدرس العلم الطبيعية (الأخياء والكيمياء... إلخ) لتعليمات أسوأ القيادات الدينية، مما أدى إلى نكسة كبيرة في عقول أبنائها لاتزال باكستان تعاني منها حتى الآن.
وقد أصيبت الأسس العلمية مؤخرًا عندنا في مصر بهذا الوباء، وظهر هذا في اتجاهات لا مجال لتفسيرها الآن. وانطلق مدعو العلم ممن ينتمون بأفكار أكبر من قدراتهم، في محاولات مستمرة لفتح ثغرات في أسوار المنطق العلمي الصارم ينفذون منها إلى مطاعمهم باستخراج ما يزعجهم «علما» من
كتب التراث والمراجع القديمة.
ولعل أكثر هذه الأمراض استشراء الآن هو ما يحدث في مجالات البحث العلمي الطبي، وأخرها قضية علاج فيروس سي بالأغشاب. ومتطلبات البحث العلمي الطبي الإكلينيكي منذ الخمسينيات صارمة ومعروفة ويدرسها أي طالب بحث يحترم علمه:
وأولها: متطلبات أخلاقية تفرضها اتفاقيات دولية أهمها اتفاقية هلسنكى التي تتطلب:
- عدم إجراء أي بحث على بشر إلا على بالغ عاقل يعرف معرفة تفصيلية.
- عدم مقبل عليه.
- عدم استبدال علاج غير معروف بعلاج معروف للتجربة إلا في أحوال معينة.
- عدم إجراء أي بحث على بشر إلا بعد إقراره من لجنة محايدة تقر بجدرانوجدارته.
- عدم تجربة أي دواء إلا بعد دراسة وافية وكاملة عن سميتها وفاعليته.
- كيميائها وباستعمال حيوانات التجارب. إلخ.

Paradigm وثانيهما: متطلبات علمية يفرضها النهج العلمي. فنموذج البحث العلمي الطبي الإكلينيكي يتطلب شروطًا خاصة مبنية على ظروف تحكمه. وببساطة لا تخل بالحقيقة فإن إذا تفاعض مريض دواء ما وشفى من مرضا بعد 7 أيام فإن هناك عدة تفسيرات متنوعة لهذا الشفاء:
- أن المريض كان سيشفى سواء تعاطى الدواء أو لم يتعرض.
- أن المريض كان سيشفى بعد 7 أيام لو لم يتعرض هذا الدواء.
- أن المريض شفى فعلا بتأثير الدواء ولكن المرض سيعاوده بعد ذلك.
أن المريض شفي من المرض ولكنه سيصاب بمرض آخر خطير (السرطان مثلا) بعد ذلك بسنين.

وأخير هذه التطورات حقيقيا من أن الدواء فعلا يشفى المرض.

فإن هذه الطريقة متعددة الفاعليّة. قبل انتشار استعمالها، هي دراسة تجريبية وكذالك فعالية عزل المادة الفعالة بـ كيمياء

ومحاولة تخليطها كيميائيا، بل وتخليط مواد أخرى مشابهة لها.

هكذا يكون البحث العلمي الطبي الكريم الشريف الذي يهدف إلى مساعدة المرضى.

أما ما يحدث في أحد أكبر المراكز العلمية في مصر، فقليل يعف عن وصفه.

الأربعاء: الفزع

بلغت التاسعة والسنين. وهذه أول مرة في حياتي يكون سنّي فيها التاسعة والستين (ها ها) ... شيء مفزوع. ضع العمر ياواهدي هذا آخر عام ليس في السنوات. ولقد كبرت في السن دون أن ألاحظ ذلك. كل ما ألاحظ هو ازدياد صغر من حولي من نواب ومدرسين وأساتذة وعوام ورؤساء جامعات.

ويصبح ازدياد السن، علامة على ونحن الجسم وضعف الذاكرة، ظاهرة عديدة، منها أن يرفع المتحدثون إليك عقيلتهم مفترضين فيك شيئا من الصمم، ومنها أنهم يتحدثون إليك بكلمات بسيطة وربطك لافتراض ونحن العقل، ومنها أن تناولت ممن لا يعرفك بالحاج، ومنها أن تتوعد إليك زوجتك وأنت في الحمام بسؤال أو بآخر كل فترة من الزمن للتأكد من أنك مازلت على قيد الحياة، ولا أدرى لماذا تفترض أن الحياة تتنهى دائما في الحمام؟

ورغم ما مؤمنتي به ومنى بزمن الفكر، المشغولون بقضايا الوطن.

١٠١
الإنسانية، من هزائم متناهية على أيدى تأثى وريجى والسادات وبلتسين
والشيخ عمر عبد الرحمن، فإني أحمد الله على نعمه، فلقد علمتى مصر
وأتاحت لي ظروف السفر إلى أرجاء العالم والمعيشة في الخارج لفترات
طويلة. وكان أهم حصيلة حياتى هو من ساهمت في تربيتى من أبناء المهنة
وأبناء الجينات.
والحمدلله على ما أنعم به على
الخميس والجمعة: عطلة آخر الأسبوع

أغسطس 1995
الموسيقى، والعلوم الطبيعية

تخضع الموسيقى، مثل غيرها من العلوم والفنون الإنسانية، لقواعد وقوانين معينة، منها مثلا ما يتعلق بالهارمونيا، والبوليفونية وروائيين المضاد واللحن المتعدد Counterpoint Polyphony المميز للعصور المختلفة والأشكال المتعددة. إلخ. ويكون من هذه القواعد والقوانين علم الموسيقى Musicology علم الموسيقى الرأقي ومنها طبعة الكونسرفاتوار في أكاديمية الفنون المصرية، حيث يقوم بتدريس هذه المادة فريق توفره أ.د. سهيلة الخولي. ولكن للموسيقى أيضا، كغيرها من الفنون، العديد من العلاقات الوطيدة مع ما يطلق عليه اسم "العلوم الطبيعية" كالطبيعة والكيمياء وعلم وظائف الأعضاء إلخ. محاولة في السطور المقبلة الإجابة على بعض الأسئلة التي تتعلق بهذه العلاقات.

ماهر الصوت؟

تتكون الأصوات جميعا، ومنها الألحان الموسيقية، من ذيلبات من الضغط والتحلخ تتردد وتنتقل في الهواء بسرعة 343 مترًا في الثانية وتنتقل أيضا

٢٠٣
خلال الغازات الأخرى والسوائل والمواد الصلبة، ولكنها لا تنتقل في الفراغ.
وتنتقل هذه الذبذبات من الهواء إلى طبقة الأذن التي تنقلها إلى مجموعة من
الروافع العظمية إلى الجهاز العصبي إلى القشرة المخية التي تفهم «مهية»
هذه "الأصوات".
وتختلف هذه الذبذبات في ترددها: وتتراوح الذبذبات التي تستطيع الأذن
تمييزها من 20 إلى 20000 ذبذبة في الثانية ويطلق على وحدة "ذبذبة في
الثانية" اسم هرتز Hertz وكلما زاد عدد الذبذبات كلما زادت "حدة"
(وليس قوة) الصوت (أي كان الصوت رقيقا) والعكس صحيح. فإذا زاد
عدد الذبذبات عن 20000 هرتز فإن الصوت يصبح غير مسموع للأذن
البشرية، ولكن مسموع لبعض الحيوانات كالكلاب وسباع البحر وتستعمل
صفارات خاصة بإنتاج هذه الأصوات في تدريب هذه الحيوانات. كذلك إذا
انخفض عدد الذبذبات عن 20 هرتز فإنه يصبح أيضا غير مسموع.
* إذا كان الصوت مجرد "ذبذبات" فكيف يمكن للأذن أن تميز بين أصوات
الآلات الموسيقية المختلفة؟ كيف تميز الأذن بين صوت العود وصوت الجيتار
صوت البيانو إذا عزفت هذه الآلات نفس النغمة؟
عند العزف على وتر معين ينتج عن ذلك ذبذبات تحددها قوانين البندول،
فلمها كانت قوة "الضرب" فإن عدد الذبذبات في الثانية يرتبط بطول الوتر.
ولكن الذبذبات التي تحدث في الأوتار المختلفة تتكون من خليط من
"الأوامر" ينتج النغم الرئيسي عن اهتزاز الوتر بكامل طوله. ثم يضاف إلى
هذا النغم نغم ثانوي ناتج عن اهتزاز الوتر بعد انقسامه إلى نصفين متساويين
وأنغم أخرى أضعف ناتجة عن انقسام الوتر إلى ثلاثة أجزاء متساوية ثم أربعة

٢٠٤
بل وأحياء خمسة. فإذا كانت الذبابة الرئيسية للورت هي ١٠٠٠٠٠ ذبابة في
الثانية، فإنها تنتج متقسمها ذبذبات أخرى أقل في القوة هي ١٠٠٠٠٠
١٥ ٢٥ ٣٠ ١٢٥ ذبابة في الثانية. ومن هذا الخليط من
الأفعال المختلفة تكون أسس الهارموني والمقامات المختلفة. وتسهيل
الأذن المدرية التمييز بين الآلات المختلفة بخبرتها بنسب هذا الأصوات
الثانوية في هذه الآلات، والأصوات الوحيدة الثقة تماماً من كافه الاهتزازات
الثانوية - إلا الناتجة عن المواد المحيدة - هي الآلات الإلكترونية. وقد تمكن
اليابانيون بدراسة "الخليط" المميز لكل آلة من إنتاج أجهزة كهربائية
تستطيع تقليل أصوات الآلات الموسيقية المختلفة.

ويبقى السؤال المهم: لماذا يحب الإنسان الموسيقى، وكيف يفهمها؟
كما هو الحال بالنسبة لغيرها من الفنون، فإن الموسيقى تدخل في مجالات
علوم الجمال وهي مناطق صعب على العلم الطبيعي التدخل فيها، ولكن,
هناك على كل حال بعض دراسات للعلوم الطبيعية في هذا المجال ويمكن
تقييم هذه الدراسات إلى مجالين مختلفين:
Rhythm أولا: الإيقاع

اكتشف العلماء أن Surrogate mother في تجارب عن "الأم البديلة" أهم ما يربط الطفل بأمه في أغلب الحيوانات الرئيسية
هر دقايق القلب. فقد انتشرت صغر القردة من أمها ووضع أمامها في أفواهها
بائن عديدة للأمهات: هيكيل للأم مغطي بالشعر، هيكيل للأم به ثدى صناعي
يفرز اللبن، هيكيل مدعوم للدرجة حرارة الأم، هيكيل به جهاز يصدر أصواتا
كتبضات القلب. ولوحظ من هذه التجارب أن صفار القردة تهرب عند تعرضها للنفاذ من الخطر إلى الهيكل الأخير بدلاً من المتتالى. فالأم بالنسبة للحيوانات الرئيسية هي نبضات وإيقاع القلب. ولو سنرى في هذا الطريق خطوة أخرى لكونها لما إذا يغير الإيقاع السريع أعصابنا فهو يذكرنا بسرعة إيقاع قلب الأم عند الخطر.

Melody
ثانيًا: اللحن

بر السلوكيين أيام انتشار السلوكية حب ألحان معينة Behaviourism بالانعكاس الشرطي للحن في رأيهم يرتبط في ذهن الإنسان بمواقف معينة. ولكن يبدو أن الموضوع أعيد من ذلك بكثير.

وهناك بعض الدراسات العلمية المرتبطة فيما يتعلق بعلاقة الألحان بعلوم الحياة: فنحن نعرف مشلاً من تجارب أجريت على بعض الأدميين الذين اضطروتا لأمراض معينة لإجراء عملية جراحية تقطع الاتصال بين النصف الأيسر من المخ (وهي مركز الكلام والحركات الدقيقة في أغلب البشر) عن النصف الأيمن، إن النصف الأيسر يقوم "بمناقشة" اللحن الموسيقي وتحليله، أما النصف الأيمن فإنه يستمتع به فقط من النواحي الجمالية.

Leonard ونحن نعرف أيضاً من دراسات أجراها ليونارد برنستين عالم Noam Chomsky في معامل تأعم تشومسكي في اللغويات، أن هناك ألحاناً موروثة المعنى. وليس هذا يعجب بقليل من الحيوانات والطيور ألحان معينة لمعان معينة موروثة، وتتضمن المحيطات بعيد من الألحان التي تصدرها الحيتان لتنتقل عبر آلاف من الكيلومترات.
لتنقل «معان» معينة، وصرخة البشر. كل البشر الذين تقول على الفرح تختلف عن تلك التي تقول على الفزع أو على الدهشة. ولكن المثير في أبحاث برنشتين أنه اكتشف من دراسات على أجناس البشر المختلفة، ومنهم من لم يحتمل إطلاقاً يغيره من الجنس البشري، أن لأطفال البشر في كافة أنحاء العالم ألحانًا خاصة متشابهة يستعملونها في السخرية ببعضهم البعض.

وهكنا، وبمخاطر وطيدة، يتم تدريجياً ربط العلوم الإنسانية بالعلوم الطبيعية حتى يتمكن الإنسان من تفهم أعمق لطبيعته.
كلام عن العلم.. والأرقام.. والطبقة المتوسطة.. والقطن

ولكن ما هي العلاقة بين العلم والأرقام والطبقة المتوسطة والقطن؟ أصير معًا أيها القارئ العزيز فمسأووض هذا العلاقة.

العلم:
أصبح المنهج العلمي خلال القرنين الأخيرين هو الوسيلة الأساسية للمعرفة، وبذلك صار على كل مهتم بشئون قومه أن يأخذ بناصيته ليخدمه وينفعهم، فيه يمكن إطعام الجائع، وشفاء المريض، وضمان أمن الأمة، والمحافظة على كرامته الشيخ وسعادة وابتسامة الأطفال، وما إلى ذلك مما تدعو إليه الديانات مختلفة وما تتطلبه الغطية السليمة.

وتكنى نظرية سريعة إلى دول العالم المختلفة لتتأكد ذلك: فمن أخذ منها بناصية العلم حقق أهدافه، أما من تخلى عنه إلى وسائل أخرى فقد انتهى إلى الخيبة والفشل: فقد تخلت روسيا الستالينية عن العلم لدجال أيديولوجي يدعى ليسنكو حرم داروين وحلل لامارك.. وانتهى ذلك إلى فضيحة علمية عالمية.
وقد تخلت الباكستان أيام ضياء الحق عن العلم ووضعته تحت سيطرة الدجالين من مدعى الدين يعدلون في برامج تدريس البيولوجيا والكيمياء كما

208
يشاهون، فوصلت الأمور إلى محاولات مضحكة لتوليد الطاقة من الجان
ولاستخراج تركيب الذرة من كتب الترات.
وتأتي معارضة العلم أساسا من مجموعتين: مجموعة تتقد وأخرى تنقض.
ويتفاعل تيار العلم مع المجموعة الأولى باستمرار ويرتقي العلم بهذا التفاعل يرحا بعد يوم. فالtractionات العلمية تختلف في طبيعتها عن التراكبات الأدبية،
ففي حين تتكون الأخيرة من إضافات الحديث إلى القديم فإن التراكبات العلمية تتكون تفاعل الحديث مع القديم وظهور أنواع أروق من العلم مثلما فعل أينشتاين بذاذة نيوتن وملما فعلى علماء الداروينية الأثرية كمسنة الجديدة بنظرية داروين في الاختيار الطبيعي.
أما التيار الذي نقض العلم فهو تيار يرتكز أساسا على رفض المنهج العلمي كوسيلة للمعرفة، وليجأ أصحابه إلى ما يشبه حرب المصابات (البروضة والفيل) باللدنع هنا وهناك، ومراكز لدعمهم تكاد تتحسر في الحديث عن لا حتمية الناتجة عن نظرية الكم وما يفتدونه عن ثغرات في نظرية التطور، وفي الحديث عن نظرية الكاوس (الفرزي) الحديثة. وهم بشكل عام يتكونون من المستفيدين من بقاء الأمور على ما هي عليه، ومن أعداء التقدم والاستنارة.

الأرقام:
ولقد بدأ يظهر لدينا في مصر اتجاه مضاد للعلم يستحق الاهتمام والدراسة.
ويستمد أصحاب هذا الاتجاه قوة اندفاعهم وحماسهم من الكراهية الشديدة التي يشعر بها المثقفون الوطنيون المصريون للغرب بشكل عام والأسماوية

209
الأمريكية بشكل خاص باعتبارها مؤسسة عن كثير من الشرور في العالم
وخصوصا في عالمنا العربي. وتشمل هذه الكراهية حتى تشعل العلم باعتباره
غربي النشأة والنمو، ولعل أوضح مثل لهذا الاتجاه هو الصديق الدكتور جلال
أمين. فقد ظهرت في كتابات الدكتور جلال الأخيرة اتجاهات لنقض العلم
وليس لنقده، فالدكتور جلال يستنكر في هذه الكتابات الأرقام التي يأخذ بها
أغلب علماء الاجتماع لقياس التقدم والنمو. ومع اعتراف الجميع بالغرابات
الواضحة في هذه القياسات فإن الموقف المعتدل من عالم اجتماع مهما
كالدكتور جلال أمين كان النقد لا النقض والفرق بين الموقفين هو تقديم البديل
الديمالي العلمي وسد الغرابات في القياسات الموجودة بدلا من نقضها من
أساسها.

وتنوع أهمية هذه القياسات في الدراسات الاجتماعية من أن أروى مظاهر
العلم هي الوصول إلى التجريم السياسي، وتقديم صورة للتنمية البشرية في
مجتمع ما موثقة بالأرقام تعطي صورة أقرب ما تكون إلى الموضوعية عن هذا
المجتمع، ووجود ثغرات في هذه الصورة لا ينقطعها بل يدفعنا إلى استكمالها.

وقد نفذ برنامج الأمم المتحدة للتربية والعلوم والفنون U.N.D.U
ذلك بالفعل في تقاريره
اللاجئة عن التنمية البشرية فأخذ معاملات جديدة في القياس مثل حمية الرأي
وشري الأسلحة إلخ. بل ولقد سبق وقدم هذا البرنامج المعامل العام الذي
يربط بين متوسط دخل الفرد والمقاييس الأخرى للتنمية البشرية (التعليم.
الصحة. إلخ.) برقم إيجابي أو سلبي. يكشف بوضوح مدى التخلف السيئ
للبلدان التي تتمقع في المتوسط عال لدخل الفرد نتيجة لصدفة وجود الوقود الحرفي
والتي تتفاوض في الوقت نفسه عن تقديم خدمات لشعبها تتفاوت مع هذا

210
الدخل.

وترددنا في قبول موقف المثل العالمي الجليل يبين أنه من خوفنا من استغلال آخر له لنقض المنهج العلمي بأكمله في وقت نعائى فيه أشد المعاناة من التخلف عن ركاب الخضارة الصناعية العلمية.

الطبقة المتوسطة:

ولعل أوضح مثال لتجاهل مثل هذه القياسات والأرقام هو ما يتعلق به بعض الكتاب مؤخراً عن أزدهار ورخاء وسعادة الطبقة المتوسطة حالياً عندنا في مصر، فأغراق التنمية البشرية توضع بجلاء تخلفنا عن بلاد مثل ناميبيا وليسوتو، دعك من سوريا ولبنان والمغرب والأردن.. إلخ. ومتوسط دخل الفرد في مصر في السنين الأخيرة لم يكن كثيراً بل نقص في بعض السنين، وقد اقترب هذا بمظاهر ثراء فاحش يتمتع به أثرياء الأمة وأغلبهم من الأساليب الطيفية غير المنتجة. ويتضح هذا الفراغ من مظاهر السفه في الاستهلاك كتملك سرايات في المصابيح والمغطيات والتهام المأكولات والمشربات المستوردة وإقامة حفلات الزفاف الأسطورية.. إلخ. فإذا كان دخل الفرد ثابتًا وإذا كان الآثرياء قد ازدادوا ثراء، فلا بد أن يكون قد صبح ذلك تدرازاً في دخل الطبقة المتوسطة، الطبقة الوحيدة التي بقي لها ما يمكن أن تتقد. وهذه هي الحقيقة الموضوعية التي توضحها الأرقام والتي لا مفر منها. أما الزعم بأن الطبقة المتوسطة تعيش أروع أيامها فلا تتعلق لنا عليه.

العنوان:

من هنا تظهر أهمية المنهج العلمي في معالجة أمورنا المختلفة. ولذا فإن الدول العظيمة تحتكر الأرقام أشد الاحترام، بل إن علم الإحصاء الذي يستمد
اسمه عندنا من عيد الحسي يستمد اسمه في الإنجليزية من "Statistics" الأرقام التي تعبِّر عن أحوال الدولة. ولهذا أيضاً فإن أخطر ما يمكن أن يصاب به نظام حاكم هو كشف قصف أرقمته، لأنه بذلك يفقد مصداقتيه أمام شعبيه. وهذه كارثة بيرو للعلاقة بين أي نظام حاكم وشعبه.

وعندما تتحدث الحكومة عن نسبة حضور الانتخابات لا يمكن ترافقها بأي حال من الأحوال، بل يمكن دحضها علمياً بأي عينة عشوائية. فإن هذا يمثل كارثة لمصداقيتها.

وعلماً ما حدث في كارثة القطن الأخيرة من عارى واضح لما تحدث عنه: فقد أثبتنا حكم الفلاحين عم عراقي في اللجنة الاقتصادية للتجمع منذ شهر عديدة بأن القطن المصري سيصاب بكارثة هذا العام، وأوضح لنا أساسها (البذرة منزوعة الزغب، مقاومة الدودة بالمصايد.. إلخ)، ومع ذلك استمرت الصفحات الخضراء في الصحف القومية تنفي ذلك وتؤكد عكسه.. ولم تكن هذه أول مرة ولن تكون هذه آخر مرة تتلاعب فيها وزارة الزراعة بالأرقام، فقد سبق ذلك كارثة الأرز وواعد بالاكتفاء الذاتي وقتل مشروع البهلول لمصلحة مستوردى اللحوم وتحويل الزراعة إلى الفراولة والكانتالوب ونحن نعاضر الآن كارثة السماح.. إلخ. وفي كل هذه الكوارث ذبح العلم وذبح الأرقام وذبح كذلك المصداقية.

أرى أبا القارئ العزيز العلاقة بين العلم والأرقام والطبقة المتوسطة والقطن؟

سبتمبر 1995

212
لغتنا الجميلة وعلم اللغويات

يقول جورج برنارد شو في مسرحية "بيجماليون" ما يعني أنه "يعيش في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحدة شعبان من أصل واحد، تفصل بينهما لغة واحدة".

وسيلحظ أى مواقف مهتم بأمور مصر أن لغتنا قد أصبحت تقسمنا إلى عشرات الشعوب، فتختلف اللغة حسب درجة التعليم وتختلف لغة خريج المدارس الحكومية عن لغة خريج المعاهد الأجنبية وعن لغة خريج المحاكم الدينية، بل وتختلف لغة الإناث عن لغة الذكور، وهذا بالإضافة إلى اللهجات المختلفة للأقاليم المتعددة. وسيلحظ أيضاً أى محاكاة أجهزة الإعلام المسموعة والمسمورة مدى الانحصار الذي وصلت إليه لغة شبابنا، ولغة مذيعاتنا، التي تمتلك بأخطاء في الصيغة (نطق الضاد والطاء والقاف والخليط بين النازل والزائى... إلخ) وباستعمال قبيح لبعض الكلمات (مثل: "وكده".. اوكي... "يعني".. "يمكن".. "عاوني".. "على حشو الكلام عند محارلة المنظورة اللغوية بكلمات لا محل لها (مثل: "من خلال".. "في كل مكان".. إلخ). فإذا تذكرنا الارتباط الوثيق بين اللغة والفكر فإنه يصبح من المزعج حقاً تصور المستوى الفني لهذا الشباب بهذه المذيعات.

فإذا تركنا هذا المجال إلى القادة والوزراء بل والمثقفين والمهنيين فسوف...
نرى مذبحة شنيعة للغاية كما هو مفروض علينا أن نتكلمها، لا يكاد يستثني أحد منا عن مستموليده في هذا المجال. ولا عجب فنحن نتحدث بلغة لا نكتبها، ونكتب بلغة لا نجدها، ولن نجدها لأننا لا نتعلمها في الوقت الصحيح كما سأوضح فيما بعد.

ومن العجيب أننا كلما تدارسنا متابعنا في لغتنا انحصر تفكيرنا في حماية هذه اللغة من أي تطور، بل وقد بلغ من غيرتنا على لغتنا من أي تغيير أنتا عزلناها عن التفاعل مع العلوم الحديثة. فنحن ندرس هذه العلوم بلغات أجنبية، بل وقد فعلنا بلغتنا ماحاول بعضنا الآن فعله بعلوم البيولوجيا والجيولوجيا والفيزياء، إذ ربطنا بينها وبين البيئة وأصبح أي حوار حولها مثيرا لدعائى التفكير والردة.

ولقد قامت خلال النصف الأخير من هذا القرن ثورة شاملة في علم اللغويات انتقل بها هذا العلم من مجال العلوم الإنسانية إلى مجال Linguistics العلوم الطبيعية، وتفاعلت هذه الثورة مع العديد من العلوم الأخرى مثل علم وظائف الأعضاء وعلم التشريح وعلم النفس وعلم الاتصال وعلم الاتروبولوجى وعلم المعلومات. وخرج هذا العلم بذلك من المدرسة القديمة لعلم النفس المبنية على الانعكاس الشرطي (السلاوكونة) إلى آفاق علمية رحبة، وانتقل كذلك من مجال الدراسة النظرية إلى مجال التجربة العملية. وقد تبنى هذا المنهج العلمي السليم عشرات من المدارس في كافة بلاد العالم المتقدم، ولكن قد يكون أهم هذه المدارس هي مدرسة "تآسس تشومسكي" في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T) إذ قدمت هذه المدرسة الآلاف من الأبحاث التي غيرت المفاهيم الأساسية في علم اللغويات في نواحيه المتعددة.
 سواء في الصوتيات (Semantics) أو في المعاني (Phonetics) أو في التركيب (Syntax).
وكان لهذه المدرسة الفضل في التوثيق العلمي لحقائق ثلاث في علم اللغويات.

أثبتت دراسات Generative grammar  أولاً: الأجرومية الخلافة مدرسة تشومسكي أن المخ يحتاج على مراكز خاصة ل苄فة مكونات اللغة، وهو أن المخ في هذا المجال يقوم بدور الهيكل الصلب في الكمبيوتر Hardware.
وأنه نتيجة لذلك فإن الطفل قادر على تكوين ما لا نهاية من الجمل الصحيحة بمجرد سماعه في فترة نموه لجملة واحدة مماثلة، وبمجرد تزويده بالشفارة الصحيحة (معاني الكلمات) التي تمثل في هذا المجال برامج Software.

ثانياً: الأجرومية العالمية Universal grammar. أثبتت هذه الدراسات أيضاً أن القواعد الأساسية لتركيب الجمل (الأجرومية) للغات المختلفة متشابهة ومروثة. وقد أكدت هذه الحقيقة بدراسة لغات شعوب معزولة تماماً عن العالم ودراسة تركيب لغة الإشارة عند البكم والصم.

ثالثاً: وكتبيتية منطقة للتحقيقات السابقين فإن الزمن بأن اللغات العالمية لا قواعد لها هو زعام خاطئ. فكل لغة وكل لجها لها قواعدها التي ترتبط بها «شجرة» الكلمات لكي تصبح جملة ذات معنى فلا يمكن أن يقول طفل سليم المخل الجدیدة أذا المدرسة راجح بالبلدة بدلاً من «أنا رابع المدرسة بالبلد الجدیدة».

٢١٥
ولكن .. ما علاقة هذا كلها ما نحن نشأنه؟
تمسك قياداتنا اللغوية والثقافية خلال نصف القرن الأخير، الذي تطور فيه علم اللغويات هذا التطور الهائل، بلغتنا الفصحى كما هي بلا تطوير من منطلق أنها تقتل مخزوننا الوجداني، وأنها هي الرابطة الأساسية بيننا وبين أشقائنا في البلدان العربية الأخرى، وهو وضع يحتمه أن يتمسك الإنجليز بلغة شكسبير في مسيرياته في حياتهم اليومية. ولقد أصبح تمسكنا المتححف هذا بلغة لا يطلق عليها صحيحة بإعرابها ويتشكيلها إلا بعض منئات من ستين مليون يتحدثون لغة أخرى تعلموها وأجادوها في مرحلة تكوينهم الأولى .. مرحلة الاجرمية الخلاقة. وضعا معطلا في طريق تقدمنا. وفي وقت بدأ الكمبيوتر يتعامل فيه مع اللغات مسموعة ومقررة ومترجمة ومصححة، أصبح هذا التمكش المتححف عقبة كاد أن لا يد من تخطيها لواذبة ركب الحضارة والدخول إلى القرن الحادي والعشرين. وليس لى. وأنّ غير المتخصص، أن أقترح الحلول، ولكننا أعلم اليقين أن طريق الحلول بمر بالعلم والمتنم الفاعل بإبداعه، وبالإضافة إلى أبحاث مدارس علم اللغويات. وأن الوقت قد أزف لتقوم أقسام اللغة بالجامعات المختلفة بدورها المهم في هذا المجال.

سبتمبر 1995
المحتويات
<table>
<thead>
<tr>
<th>صفحة</th>
<th>محتوى</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>11</td>
<td>أوراق العمر. بشرطة.</td>
</tr>
<tr>
<td>17</td>
<td>النظم البيئية.</td>
</tr>
<tr>
<td>19</td>
<td>الإنسان والاتصال.</td>
</tr>
<tr>
<td>22</td>
<td>كوكب في سيله.</td>
</tr>
<tr>
<td>28</td>
<td>المهمة الثقافية.</td>
</tr>
<tr>
<td>30</td>
<td>الزلازل والإسكان.</td>
</tr>
<tr>
<td>39</td>
<td>آليات السوق.</td>
</tr>
<tr>
<td>44</td>
<td>الجنرال الفكري للعنف.</td>
</tr>
<tr>
<td>49</td>
<td>تراكم المعلومات والتطور.</td>
</tr>
<tr>
<td>56</td>
<td>كونشرتوبثه.</td>
</tr>
<tr>
<td>62</td>
<td>كلمًا من شرف الكلمة.</td>
</tr>
<tr>
<td>68</td>
<td>الكابوس.</td>
</tr>
<tr>
<td>72</td>
<td>مغامرة كليزونية.</td>
</tr>
<tr>
<td>80</td>
<td>حوارات وحفرات.</td>
</tr>
<tr>
<td>83</td>
<td>عصل وعلوم.</td>
</tr>
<tr>
<td>86</td>
<td>في انتظار عودة المكتبة.</td>
</tr>
<tr>
<td>91</td>
<td>الخصخصة التماش. أو الموت الزواج.</td>
</tr>
</tbody>
</table>
الكاتب

- الاستاذ الدكتور سمير حنا صادق
- الرئيس الأسبق لأقسام
- التحاليل الطبية بكلية الطب
- جامعة عين شمس
- نائب رئيس الجمعية المصرية للطب المعملي
- عضو المكتب الاقتصادي لحزب التجمع
- عضو لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة
- فاز كتابه "عصر العلم" بجائزة احسن كتاب عن العلم في
- المعرض السنوي للكتاب في النوبيل الفني للهيئة
- المصرية العامة للكتاب.